من آيات الله

بقلم الدكتور
أحمد عبد الرحيم السايح

مركز الكتاب للنشر





مصر الجديدة: ٢١ شارع الخليفة المأمون - القاهرة
ت: ٢٩٠٨٢٠٣-٢٩٠٦٢٥٠-فاكس: ٢٩٠٦٢٥٠

مدينة نصر: ٧١ شارع ابن النفيس - المنطقة السادسة - ت: ٢٧٢٣٣٩٨

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين . أنزل القرآن لإصلاح حال الخلق والصلاة والسلام على سيدنا محمدٍ رسول الله وعلى آله وصحبه . .

أما بعد . .

فإن الإسلام الحنيف يدعو المسلمين إلى إعمال عقولهم، وإطلاق الحرية لتفكيرهم، وفك القيود، وترك العنان لنظرهم وتأملهم. بغية الوصول عن طريق العقل السليم، والمنطق السليم، والنظر الصائب، والفحص الدقيق، فى آفاق الكون سمائه، وأرضه، جماده، وحيوانه، ونباته، كوكبه، ونجومه، إلى معرفة الحق، الذى بيده ملكوت السموات والأرض، وسنن الكون ونواميسه.

لقد بلغ من حفاوة الإسلام بالعقل وحرصه على أن يزاول فى حيوية حريته، وتفكيره، وتأمله، ونظره، أن عمل على إيقاظ العقول، وضرورة التفكير فى الأنفس، والآفاق، وجميع ما تلمسه حواسهم، ويقع تحت مدركاتهم.

والحق أن دعوة الإسلام إلى تحرير العقل، وإطلاق الفكر، وإيقاظ البصيرة للنظر و التأمل، دعوة من شأنها أن تنبه الإنسان العاقل، لكى يعلم ويتعلم، ويستفيد ويفيد.

ولقد كان علماءُ الأمة الإسلامية فى عصور إزدهار الحضارة الإسلامية على أعلى ما عرفت الإنسانية من إطلاق العقل، والتفكير فى آيات الله.

وكان العلماء يرون فى حرية التفكير عبادة، وفى إطلاق النظر ما يقود إلى العبرة، ويؤدى إلى العظمة، ويدفع إلى مزيد من التقدم والحضارة.

الأمر الذى ظلت به حرية التفكير زاد العلماء، الذى فجر كل طاقة متاحة أسهمت فى بناء الحضارة.

والأمة الإسلامية وهى تتطلع إلى مجد مشرق، جدير بها أن تقرأ آيات الله، لتتعرف على ما فى كون الله من آيات، فتنهل من هذه الأيات ما يزيدها إيماناً بالله، خالق الأرض والسماء، وما فيهما من مخلوقات. .

ولا يخفى أن كرامة الأمة، ذات صلة وثيقة باحتفاظها بسيادتها. ولا يخفى أن احتفاظ الأمة بسيادتها، مرتبطة بمدى استطاعتها وقدرتها على النظر فى آيات الله، والاستفادة العملية من هذه الآيات، قال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الجاثية: ١٣].

وآيات القرآن التى تناولت آيات الله كثيرة، ومتنوعة، نجدها في الماء، والهواء، والنبات، والحيوان، والبرق، ورفع السماء، والطير، والفلك، والسحاب، وفى كل شئ. .

وقد تناولت فى هذا الكتاب بعضاً من هذه الآيات، التى تدفع الإنسان بطريق مباشر أو غير مباشر، إلى تحصيل العلم فى صوره المختلفة.

ويستحيل علينا أن نقف على أنفسنا، وعلى ما فى الأرض وما يعلو هذه الأرض، وما يحيط بها، مما فيه فائدة ورزق، إلا إذا تصورنا ما يتصور منها على وجهه الصحيح، وأحسسنا بما يحس ويشاهد واختبرنا ما يصح أن يختبر. وتلك هى ضروب العلم وصنوفه تبعاً لمجالات ما يعلم.

فما أمرنا أن نتحرك فى يقظة واعية، إلا لنصل إلى خير ما قدر لنا فى هذه الحياة.

الدكتور

أحمد عبد الرحيم السايح

من آيات الله

فى خلقه

بنظرة تدبر وتفكر فى خلق الله سبحانه وما اشتمل عليه من عظمة، وجلال، وما قام عليه من أسس وقوانين، هى من الدقة، والتنسيق، والتنظيم، حيث عجز المفكرون عن إدراك كنهها، ووقفوا مشدوهين أمام كمالها.

بهذه النظرة المجردة من الهوى والتضليل، ندرك أن الله سبحانه، هو الذى أعطى كل شئ خَلْقَهُ، ودبر فى الكون كل ذرة. وأنه وحده الذى يستحق أن تعنو له الْجِبَاهُ وتخر له الرؤس ساجدة، وينقاد له الخلق معظمين مكبرين.

قال تعالى فى سورة البقرة: ﴿**إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ**﴾ [البقرة: ١٦٤].

وقال تعالى فى سورة آل عمران: ﴿**إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُولِي الأَلْبَابِ**﴾ [آل عمران: ١٩٠].

ولكن قصة البشرية مع خالقها وبارئها، فيها مساوئ كثيرة، زلت فيها أقدام البشر، وضلت عقولهم، وأضلوا من تابعهم..

وكثيراً ما يلغى الناس عقولهم، ويرضون بإهدار كرامتهم، فيقلدون تقليداً أعمى أشخاصاً أعمتهم المادة، عن رؤية جمال ما فى الحياة..

وهذان مشهدان صورهما كتاب الله لنا لندرك أن الذين حاولوا إنكار الله سبحانه وتعالى لم يكن لهم بذلك أدنى برهان.

اسمع قول الله تعالى فى مجادلة أحد الملوك لإبراهيم عليه السلام: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٨].

ثم اسمع ما جرى من مناقشة بين فرعون وموسى عليه السلام فى سورة الشعراء: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ (٢٣) قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ (٢٤) قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلا تَسْتَمِعُونَ (٢٥) قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الأَوَّلِينَ (٢٦) قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ (٢٧) قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الشعراء: ٢٣-٢٨].

وهناك كثير من الآيات التى تدعو إلى التفكر والنظر فى السموات والأرض وما خلق الله فيهما، ليصل الإنسان إلى الإيمان بالله، فيرتقى إلى السمو والكمال.

والإنسان بدون إيمان بالله لا قيمة له ولا اعتبار. قال تعالى فى سورة الأعراف: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

فما أسقط المخلوق صلته بخالقه إلا أسقط خالقه صلَته به فى الأولى والآخرة، فيجب بالضرورة أن يغدو الإنسان لحق الله تابعاً، وإلا كان أمره فرطاً.

ولقد جاءت آيات القرآن الكريم توجه الناس إلى النظر، والتفكر، والتدبر، وتستنهض العقول، وتوقظ الحواس، وتنبه المشاعر. وذلك بالتعقيب على بيان الآيات الكونية والتشريعية بمثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الرعد: ٤]. وقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الرعد: ٣]. وقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لأُوْلِي النُّهَىٰ﴾ [طه: ٥٤].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ [يونس:٦٧]. وقوله تعالى:﴿وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [البقرة:٢٢١]. إلى غير ذلك من آيات جاءت تضع أصول المنهج الإسلامى فى تحرير العقل والفكر.

وأول دعائم المنهج الإسلامى فى تحرير العقل والفكر: تحرير الإنسان من أغلال الحجر العقلى وسيطرة التبعية العمياء، وتربيته تربية إسلامية تقوم على الفكر الصحيح ليكمل بذلك العقل، ويستقيم التفكير. لأن كمال العقل، واستقامة التفكير أساس فى صحة العقيدة وكمال التدين، ومعرفة الحق الذى يجب أن يتبع.

والدعامة الثانية فى المنهج الإسلامى: تحرير الإنسان من أصفاد الجهل وظلمته، لأن الجهل يقتل مواهب الفكر والنظر، ويطفئ نور القلوب، ويعمى البصائر، ويميت عناصر الحياة فى الأفراد، والجماعات، والأمم، ويفسد على الناس مناهج الاستقامة والسلوك الحسن.

والدعامة الثالثة فى المنهج الإسلامى: تحرير الإنسان من طاعة الأهواء، والانقياد الأعمى لمغرياتها. لأن طاعة الأهواء من أقوى عوامل انحراف الإنسان فى سلوكه، والتوائه فى نظره وتفكيره. وهؤلاء الذين يطيعون الأهواء، لا يستقيم لهم رأى ولا تعتدل لديهم موازين، ولا يخضعون لحق ليس فى جانبهم.

وآيات الله جاءت للعقل الإنسانى بكل ما احتواه. فالقرآن يخاطب العقل لوازع، والعقل المدرك، والعقل الحكيم، والعقل الرشيد، لأن الكتاب الذى ميز الإنسان بخاصة التكليف هو الكتاب الذى امتلأ بخطاب العقل بكل ملكاته، وكل وظيفة عرفها له العقلاء والمتعقلون، أفلا يعقلون؟ أفلا يتفكرون؟ أفلا يبصرون؟ أفلا يتدبرون؟ إن هذا العقل بكل عمل من أعماله التى يناط بها التكليف حُجَّة على المكلفين فيما يُعْنيهم من أمر الأرض والسماء، ومن أمر أنفسهم، ومن أمر خالقهم، وخالق الأرض والسماء..

والعقل الذى يخاطبه الإسلام، هو العقل الذى يعصم الضمير، ويدرك الحقائق، ويميز بين الأمور، ويوازن بين الأضداد، ويتبصر، ويتدبر، ويحسن الادكار.

ذكر ابن كثير عن أبى حنيفة أن بعض الزنادقة سألوه عن وجود البارى تعالى فقال لهم: دعونى، فإنى أفكر فى أمر.. ذكروا لى أن سفينة فى البحر مثقلة بأحمالها فيها أنواع من المتاجر.. وليس بها أحد يحرسها ولا يسوقها. وهى مع ذلك تذهب وتجئ وتسير بنفسها، وتخترق الأمواج العظام حتى تتخلص منها وتسير حيث شاءت من غير أن يسوقها أحد..

فقالوا: هذا شئ لا يقوله عاقل.. فقال: ويحكم هذه الموجودات بما فيها من العالم العلوى والسفلى، وما اشتملت عليه من الأشياء المحكمة، أليس لها صانع؟ فبهت القوم، ورجعوا إلى الحق، وأسلموا على يديه.

* * *

من آيات الله

فى السماء والأرض والبحر

قال تعالى فى سورة البقرة: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٦٤].

إن الله سبحانه وتعالى الذى لا تدركه الأبصار، لم يترك الناس فى بيداء الحياة الدنيا دون تنبيه، يوقظ فيهم القلوب، ويحيى فى نفوسهم الإيمان به. .

والتنبيه الذى يحرك المشاعر، ويهز النفوس تجلى فى كتابين خالدين: كتاب نراه ونحس به هو الكون أو الكتاب المنظور. . وكتاب نقرؤه ونرتله هو القرآن الكريم، الذى أنزله الخالق لإصلاح حال الخلق. .

وقد عرض الكتاب المسطور كثيراً من مشاهد الكون السماوية والأرضية وساق هذه المشاهد لتحقيق أغراضه ومقاصده ولعل أهمها مسألة وجود الله والإيمان به، يقول محمد عبده فى كتابه: «الإسلام بين العلم والمدنية» وللإسلام فى الحقيقة دعوتان: دعوة إلى الإعتقاد بوجود الله وتوحيده ودعوة إلى التصديق برسالة محمد ﷺ.

فأما الدعوة الأولى: فلم يعول عليها إلا على تنبيه العقل البشرى، وتوجيهه إلى النظر فى الكون واستعمال القياس الصحيح، والرجوع إلى ما حواه الكون من النظام والترتيب، وتعاقد الأسباب والمسببات، ليصل بذلك إلى أن للكون صانعاً واجب الوجود، عالماً، حكيماً، قادراً. وأن ذلك الصانع واحد، لوحدة النظام فى الأكوان.

وأطلق للعقل البشرى أن يجرى فى سبيله الذى سنته له الفطرة بدون تقييد.

فنبه إلى أن خلق السموات والأرض، واختلاف الليل والنهار، وتحريك الرياح على وجه يتيسر للبشر أن يستعملها فى تسخير الفلك ومنافعه، وإرسال تلك الرياح لتثير السحاب فينزل من السماء ماء، فتحيا به الأرض بعد موتها، وتنبت ما شاء الله من النبات والشجر، مما فيه رزق الحى، وحفاظ حياته، كل ذلك من آيات الله، على أن يتدبر فيها ليصل إلى معرفته.

والقرآن الكريم فى الآيات الكونية، يعمد إلى تنبيه الحواس والمشاعر، وفتح العيون، والقلوب إلى ما فى هذا الكون العظيم من غرائب، تلك التى أفقدتها الألفة غرابتها.

والقرآن إذ يلفت النظر إلى السموات والأرض وتكوينهما، إنما يوجه الحس إلى أضخم ما يتراءى فى هذا الكون العريض، فهو يلفت النظر إلى السموات بنجومها وكواكبها وأفلاكها، وإلى هذا التناسق العجيب الذى يربطهما جميعاً، ويلفها جميعاً، وإلى هذا الفضاء الهائل الذى تسبح فيه تلك العناصر الضخمة من غير أن يصيبها اختلال، أو يعتورها انحلال.

هذه الضخامة الحسية، وهذا التناسق الأخّاذ، ينبغى أن يلفتا الإنسان ويدعواه إلى التأمل الواعى، إلى ما وراءهما من قدرة كامنة، وعظمة مستقرة.

هذه المشاهد التى فى السموات والأرض كادت الألفة تذهب برونقها فى النفوس، وتزيل تأثيرها فى العقول، لولا أن القرآن راح يعرضها مرات عديدة على تلك النفوس والعقول، بذلك الأسلوب الأخاذ، ليعيد طراوتها فى الأذهان فكأنها تُرى لأول وهلة.

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٦٤].

﴿**إن فى خلق السموات والأرض**﴾ تلك بما فيها من كواكب ومجرات وغير ذلك وهذه الأرض بما فيها من جبال وبحار وقفار ووهاد وغير ذلك.

﴿**واختلاف الليل والنهار**﴾ تارة يطول هذا ويقصر هذا، وتارة يأخذ هذا من هذا، ثم يتقارضان وهذا يجئ ثم يعقبه الآخر، ضمن نظام دقيق عجيب.

﴿**و الفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس**﴾ أى فى تسخير البحر بحمل السفن من جانب إلى جانب لمعايش الناس، والانتفاع بما عند أهل ذلك الإقليم، ونقل هذا إلى هؤلاء، وما عند أولئك إلى هؤلاء.

﴿**وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها**﴾ أى وما أنزل الله من السحاب من مطر فأحيا بالماء الأرض من بعد يبسها.

﴿**وبث فيها من كل دابة**﴾ أى وفرق فيها من الدواب من كل الأنواع والأصناف، مختلفة الأشكال والألوان، والمنافع، والصغر، والكبر.

﴿**وتصريف الرياح**﴾ ضمن نظام دقيق عجيب.

﴿**والسحاب المسخر بين السماء والأرض**﴾ المذلل المنقاد لمشيئة الله.

﴿**لآيات لقوم يعقلون**﴾ لدلالات بينة على وحدانية الله لمن ينظرون بعيون عقولهم، ويعتبرون فيستدلون بهذه الاشياء على قدرة موجدها.

والآية الكريمة التى حلقت بنا فى كون الله ذكرت ظواهر، كل منها يدل على الله بما لا يقبل جدلاً: ظاهرة حدوث الكون.. وظاهرة الإرادة فيه.. وظاهرة الحكمة.. وظاهرة الهداية.. وظاهرة الإبداع.. وظاهرة الاستجابة.. وظاهرة العناية.. وظاهرة الوحدة.

﴿**إن فى خلق السموات والأرض**﴾ ظاهرة الحدوث..

﴿**واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس**﴾ ظاهرة الإرادة والحكمة والهداية والعناية. ﴿**وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة**﴾ ظاهرة الحياة والإبداع.

﴿**وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض**﴾ ظاهرة حكمة، وعناية، وهداية، وإرادة.

وهذه الآية - كما ترى - كلها مشاهد.. لو أعاد الإنسان تأملها، كما يوحى القرآن للقلب المؤمن، بعين مفتوحة، وقلب واع. لارتجف كيانة من عظمة القدرة، ورحمتها.

ومشاهد الكون تشهد بحقيقة الألوهية - النظام والتناسق - مما يشهد بوحدانية الصانع المقْدر المدبر، الذى يصنع عن علم، ويبدع عن معرفة..

ومشاهد الكون معرض للأنظار والقلوب، وإن مجرد التعقل فى آياته، ليقود الإنسان إلى الإيمان بالله، ولذلك ختمت الآية بقوله تعالى ﴿**لآيات لقوم يعقلون**﴾.

فلو ألغى الإنسان عن عقله بَلاَدَة الأَلْفَة والغَفْلَة، فاستقبل مشاهد الكون بحس متجدد، ونظرة مُسْتَطْلعَة، وقلب نوره الإيمان، لرأى فى كل شئ آية، والمؤمنون هم الذين تتفتح قلوبهم لآيات الله الكونية، والمؤمنون هم الذين يدركونها، لأنهم مفتوحو البصائر والمشاعر لتلقى الإدراك.

* * *

من آيات الله

فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار

قال تعالى فى سورة آل عمران : ﴿**إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِأُولِي الأَلْبَابِ**﴾ [آل عمران : ١٩٠].

أى فى نظام السموات والأرض وبديع تقديرهما، وعجيب صنعهما، وفي اختلاف الليل والنهار وتعاقبهما بنظام دقيق طوال العام، نرى أثارَهُا فى أجسامنا وعقولنا بتأثير حرارة الشمس وبرد الليل. . وفى الحيوان والنبات وغير ذلك. لآيات ودلائل على وحدانية الله، وكمال علمه وقدرته. .

ولا يخفى أن فى قوله تعالى: ﴿**إن فى خلق السموات والأرض**﴾ نداء رقيق. . ينبعث من الأفق الأعلى، ليقود المؤمنين الذين شخصت قلوبهم وعقولهم إلى ما لله فى السموات والأرض لترتاد مواقع الحق والخير، فتجد فى هذا النداء الرقيق هادياً يهديها ورفيقاً يؤنسها، ويكشف لها معالم الطريق.

ففى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار، آيات مبصرة لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد. . وإنه لكى يكون للعقل أثره وثمرته فى هذا المجال ينبغى أن ينصرف بكل وجوده إلى هذا الملكوت، وأن يعيش فيه وله.

فذلك هو الذى يفتح له مغالق الخير فيه، ويطلعه على مطالع الحق منه.

والتعبير هنا ﴿**إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب**﴾ يرسم صورةً حية من الإستقبال السليم للمؤثرات الكونية، فى الإدراك السليم، وصورةً حية من الاستجابة السليمة لهذه المؤثرات المعروضة للأنظار والأفكار، فى صميم الكون بالليل والنهار.

والقرآن يوجه القلوب والأنظار توجيهاً مُكَرَّراً مُؤَكَّداً إلى هذا الكتاب المفتوح الذى لا تَفْتَأ صفحاتُه تُقَلَّبُ فتبدو فى كل صفحة آيةٌ موحيةٌ تستجيشُ الفطرة السليمة إحساساً بالحق المستقر فى صفحات هذا الكتاب، وفى تصميم هذا البناء.

وأولو الألباب فى قوله تعالى: ﴿**لآيات لأولى الألباب**﴾ أولو الإدراك الصحيح، يفتحون بصائرهم لاستقبال آيات الله الكونية، ولا يقيمون الحواجز ولا يُغْلِقُون المنافذ بينهم وبين هذه الآيات، ويتوجهون إلى الله بقلوبهم قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم. فتتفتحُ بصائرهم، وتشفُّ مداركهم وتتصل بحقيقة الكون التى أودعها الله إياه، وتدرك غاية وجوده، وعلة نشأته، وقوام فطرته بالإلهام الذى يصل بين القلب البشرى، ونواميس هذا الوجود.

ومشهد السموات والأرض، ومشهد اختلاف الليل والنهار. لو فتحنا له بصائرنا وقلوبنا وإدراكنا، لو تلقيناه كمشهد جديد، تتفتح له العيون أول مرة، لو استنقذنا حسنا من همود الإلف، وخمود التكرار، لارتعشت له رؤانا، ولاهتزت له مشاعرنا، ولأحسسنا أن وراء ما فيه من تناسق لابد من يد تُنسقُ، ووراء ما فيه من نظام لابد من عقل يدبر، ووراء ما فيه من إحْكَام لابد من ناموس لا يختلف، وأن هذا كله لا يمكن أن يكون خداعاً، ولا يمكن أن يكون جزافاً، ولا يمكن أن يكون باطلاً.

والسياق القرآنى يصور خطوات الحركة النفسية التى ينشئها استقبال مشهد السموات والأرض واختلاف الليل والنهار، فى مشاعر أولى الألباب تصويراً دقيقاً. وهو فى الوقت ذاته تصوير إيحائى يلفت القلوب إلى المنهج الصحيح فى التعامل مع الكون، وفى التخاطب معه بلغته، والتجاوب مع فطرته وحقيقته والانطباع بإشاراته وإيحاءاته، ويجعل من كتاب الكون المفتوح كتاب معرفة للإنسان المؤمن الموصول بالله، وبما تبتدعه يد الله.

وأولو الألباب هم الذين ينظرون ويستفيدون، ويهتدون، ويستحضرون عظمة الله، ويتذكرون حكمته وفضله، وجليل نعمه، فى جميع أحوالهم، من قيام، وقعود، واضطجاع.

إنهم هم الذين لا يغفلون عنه تعالى فى عامة أوقاتهم باطمئنان قلوبهم بذكره، واستغراق سرائرهم بمراقبته. . ﴿**الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ**﴾ [آل عمران: ١٩١].

وذكر الله وحده لا يكفى فى الاهتداء، بل لابد معه من التفكر فى بديع صنعه وأسرار خليقته ﴿**وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ**﴾ [آل عمران: ١٩١] أى وتتفكرون فى خلق السموات والأرض وما فيها من الأسرار والمنافع، الدالة على العلم الكامل، والحكمة البالغة، والقدرة التامة.

والفوز والنجاة إنما يكون بتذكر عظمة الله، والتفكر فى مخلوقاته من جهة دلالتها على وجود خالق واحد، له العلم والقدرة، ويتبع ذلك صدق الرسل، وأن الكتب التى أنزلت عليهم مفصلة لأحكام التشريع، حاوية لكل الآداب، وجميل الأخلاق، ولما يلزم نظم المجتمع فى هذه الحياة، وللحساب والجزاء على الأعمال.

وإنما ذكر التفكر فى خلق الله لورود النهى عن التفكر فى الخالق، لعدم الوصول إلى حقيقة ذاته وصفاته. فقد أخرج الأصفهانى عن عبد الله بن سلام قال: خرج رسول الله ﷺ وهم يتفكرون. فقال: «تفكروا فى الخلق، ولا تُفكرُوا فى الخالق».

وعن عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله ﷺ «تفكروا فى ألاء الله، ولا تفكروا فى الله تعالى».

والقرآن الكريم يقرن بين توجه القلب إلى ذكر الله وعبادته ﴿**قياما وقعودا وعلى جنوبهم**﴾ وبين التفكر فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار، فيسلك هذا التفكر مسلك العبادة، ويجعله جانباً من مشهد الذكر، فيوحى بهذا الجمع بين الحركتين بحقيقتين هامتين.

الحقيقة الأولى: أن التفكر فى خلق الله، والتدبر فى كون الله المفتوح، هو عبادة لله من صمم العبادة، وذكر الله من صمم الذكر.

والحقيقة الثانية: أن آيات الله فى الكون لا تتجلى على حقيقتها الموحية إلا للقلوب الذاكرة العابدة.

والمؤمن المتفكر يتوجه إلى الله ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ﴾ [آل عمران: ١٩١] ربنا ما خلقت هذا الذى نشاهده من العوالم العلوية والأرضية باطلاً، ولا أبدعته عبثاً. سبحانك ربنا تنزهت عن الباطل والعبث. بل كل خلقك حق مشتمل على حكم جليلة، ومصالح عظيمة.

* * *

من آيات الله

فى الحب والنوى

قال تعالى فى سورة الأنعام: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَىٰ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾ فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ٩٥-٩٧].

فى هذه الآيات الكريمات، تتدفق المدلولات، والمشاهد، والعبارات، فى موجات متلاحقة، ونحن أمام كتاب الكون المفتوح، الذى يمر به الغافلون فى كل لحظة، فلا يقفون أمام خوارقه وآياته، ويمُر به المطموسون فلا تتفتح عُيونهم على عجائبه وبدائعه.. وها هو القرآن يرتاد بالناس هذا الوجود، ويقف أمام معالمه العجيبة، ويفتح الأعين مشاهده الباهرة، ويثير تطلع الناس إلى بدائعه التى يمر عليها الغافلون غافلين..

﴿إن الله فالق الحب والنوى﴾ ذلكم هو الله، وتلك هى بعض آثار قدرته.

فلينظروا فى هذا الذى أبدعته القدرة القادرة، التى قام سلطانها على كل شئ، ونفذ علمها إلى كل شئ. فهذه الحبة الصغيرة التى لا تكاد تمسك بها العين يَفْلَقُهَا الخالق، فَيُخْرِجُ من كيانها الضعيف، وَجَرْمها الصغير شجرةٌ عظيمة مورقة، مزهرة مثمرة، إنها المعجزة التى لا يدرى سرها أحد، فضلاً على أن يملك صنعها أحد.

معجزة الحياة، نشأة وحركة.. وفى كل لحظة تنفلق الحبة الساكنة، عن نبتة نامية، وتنفلق النواة الهامدة عن شجرة صاعدة.

والحياة الكامنة فى الحبة والنواة، النامية فى النبتة والشجرة، سر مكنون، لا يعلم حقيقته إلا الله، ولا يعلم مصدره إلا الله.

وتقف البشرية بعد كل ما رأت من ظواهر الحياة وأشكالها، وبعد كل ما درست من خصائصها وأطوارها، تقف أمام هذا السر المغيب كما وقف الإنسان الأول، تدرك الوظيفة والمظهر، وتجهل المصدر والجوهر.. والحياة ماضية فى طريقها، والمعجزة تقع فى كل لحظة.. ومنذ البدء أخرج الله: الحى من الميت، فقد كان هذا الكون أو على الأقل - كانت هذه الأرض، ولم يكن هناك حياة، ثم كانت الحياة أخرجها الله من الموات. كيف؟ لا ندرى.

وهى منذ ذلك الحين تخرج من الميت فتتحول الذرات الميتة فى كل لحظة- عن طريق الأحياء - إلى مواد عضوية حية تدخل فى كيان الأجسام الحية- وأصلها ذرات ميتة- إلى خلايا حية. والعكس كذلك. ففى كل لحظة تتحول خلايا حية إلى ذرات ميتة، إلى أن يتحول الكائن الحى كله ذات يوم إلى ذرات ميتة.

فهذه النواة اليابسة التى لا يتجاوز جرمها جرم حصاة صغيرة، يفتقها الخلاق العليم، فيخرج من أجوائها نخلة باسقة، تطاول السماء، وتناطح السحاب، فالله سبحانه وتعالى يشق الحب والنوى فى التراب، فَتَنْبُتُ الزروع على اختلاف أصنافها من الحبوب، والثمار على تنوع أشكالها وألوانها وطعومها من النوى.

قال تعالى: ﴿**يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى**﴾ ولا يقدر إلا الله أن يصنع ذلك. لا يقدر إلا الله أن ينشئ الحياة منذ البدء من الموات. ولا يقدر إلا الله أن يجهز الكائن الحى بالقدرة على إحالة الذرات إلى خلايا حية، ولا يقدر إلا الله على تحويل الخلايا الحية مرة أخرى إلى ذرات ميتة.

قال تعالى فى سورة البقرة ﴿ **كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢٨) هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا**﴾[البقرة: ٢٨، ٢٩].

فالله سبحانه وتعالى يخرج الحى من الميت، ويخرج الميت من الحى. وفى هذا العرض للإحياء والإماتة، والإماتة والإحياء، مثلٌ ظاهرٌ يرى فيه الإنسانُ العاقلُ صورة لحياته هو، وأنه كان فى عالم الموات، ثم إذا هو كائن حى عاقل، ثم إذا هو مردود إلى عالم الموات مرة أخرى، فهل تعجز القدرة الإلهية عن رده مرة ثانية إلى الحياة إن ذلك فى تقدير الإنسانية أمر أهون مما سبقه من إيجاد الحياة من العدم.

وقوله تعالى: ﴿**ذلكم الله فأنى تؤفكون**﴾ إشارة إلى الله سبحانه، وأنه هو الإله الحق الذى لا ينبغى لعاقل أن يتخذ إلهاً غيره، فذلكم الله وتلك هى بعض آثار قدرته.

﴿**فأنى تؤفكون**﴾ إنكار على هؤلاء الضالين أن يكون لهم متجه غيرُ الله. ثم هو دعوة مجددة لهم أن يتركوا هذا الطريق الآثم الذى هم فيه، وإلا كانوا فى الهالكين.

وقوله تعالى: ﴿**فالق إلاصباح وجعل الليل سكنا والشمس والقمر حسبانا**﴾ هو استعراض لعرض آيات من قدرة الله، فهو سبحانه خالق الضياء والظلام، يفلق ظلام الليل عن غرة الصباح، فيضئ الوجود، ويستنيرُ الآفق، ويضمحل الظلام، ويذهب الليل بسواده، ويجئ النهار بضيائه وإشراقه، وذلك من آثار قدرته عز وجل على خلق الأشياء المتضادة المختلفة، الدالة على كمال عظمته، وعظيم سلطانه.

وكما أنه فلق الإصباح فقد جعل الليل ساجياً مظلماً لتسكن فيه الاشياء، وجعل الشمس والقمر بحساب مقنن مقدر، لا يتغير ولا يضطرب، بل لكل منها منازل يسلكها ضمن النظام الدقيق للمجموعة الشمسية مع الأرض، مما يترتب عليه ما يترتب، والجميع جارٍ بتقدير العزيز الذى لا يعزب عن علمه مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء.

وكما فعل هذا كله، فقد جعل النجوم ليهتدى بها الإنسان فى ظلمات البر والبحر، فلولاها لضاع الإنسان، ولم يستطع أن يسلك طريقاً بحرياً، ولا أن يهتدى فى الظلام إلى طريق.

وبعد ذلك تبقى مزية المنهج القرأنى، فى مخاطبة الفطرة بالحقائق الكونية، لافى صورة نظرية، ولكن صورة واقعية صورة تتجلى من ورائها يدُ المبدع، وتقديره، ورحمته، وتدبيره. . صورة مؤثرة فى العقل والقلب، موحية للبصيرة والعقل، دافعة إلى التدبر والتذكر، وإلى استخدام العلم والمعرفة للوصول إلى الحقيقة الكبرى المتناسقة.

يقول الله تعالى: ﴿ قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون﴾ فالاهتداء بالنجوم فى ظلمات البر والبحر يحتاج إلى علم بمسالكها، ودوراتها، ومواقعها، ومداراتها، كما يحتاج إلى قوم يعلمون دلالة هذا كله على الصانع العزيز الحكيم. فالاهتداء هو الاهتداء فى الظلمات الحسية الواقعية، وفى ظلمات العقل والضمير.

وكم فَصَّل رب العزة آياته. ولكن العَالِمَ وحده هو الذى يعرفها، ويعقلها ويؤمن بالله الذى خلق السموات والأرض وأنزل القرآن. .

* * *

من آيات الله

في النبات

قال الله تعالى في سورة الأنعام: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انظُرُوا إِلَىٰ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: ٩٩].

إن المتأمل في هذه الآية الكريمة يجد أنها تأخذ بنا إلى مشاهد الحياة المتفتحة في جنبات الأرض، مشاهد تراها الأعين، وتستجليها الحواس، وتتدبرُها القلوب، وترى فيها بدائع صنع الله والسياق القرآني يعرضها كما هي في صفحة الكون، ويلفت إليها النظر في شتى أطوارها، وشتى أشكالها، وشتى أنواعها، ويلمس الوجدان بما فيها من حياة نامية، ودلالة على القدرة التي تبدع الحياة، كما يوجهُ القلبَ إلى استجلاء جمالها، والاستمتاع بهذا الجمال.

والآية الكريمة تكشف عن علاقة السماء بالأرض، وتبين أنها علاقة عطاء وتفضل وتكامل. فالماء ينزل من السماء، فيكون رحمة ونعمة، تهتز له الأرض وتستجيب، فإذا هي تربو وَتُنبتُ من كل صنف ناضر بهيج. قال تعالى في سورة الحج: ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ [الحج: ٥]. والأرض قبل نزول الماء تكون هامدة. والماء هو العنصر الأصيل في الحياة والأحياء. فإذا نزل الماء على الأرض اهتزت الأرض. والاهتزاز حركة عجيبة، سجلها القرآن قبل أن تسجلها الملاحظة العلمية بمئات السنين. فالتربة الجافة حين ينزل عليها الماء تتحرك حركة اهتزاز، وهي تتشرب الماء، وتتفتح فتربو، ثم تتفتح بالحياة عن النبات من كل زوج بهيج.

وقال تعالى في سورة فصلت: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا

عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فصلت: ٣٩].

وقال تعالى فى سورة ق: ﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٨﴾ وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴿١٠﴾ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ الْخُرُوجُ﴾ [ق: ٧-١١].

ومشهد الإنبات فى الأرض بالماء النازل من السماء، مشهد له دلالته العميقة الناطقة بالقدرة على الإحياء والإخراج.

ودور الماء الظاهر فى إنبات كل شئ دور واضح، يعلمه البدائى والمتحضر، ويعرفه الجاهل والعالم. ولكن دور الماء فى الحقيقة أخطر وأبعد مدى من هذا الظاهر الذى يُخاطبُ به القرآن الناس عامة. فقد شارك الماء ابتداءً بتقدير الله فى جعل تربة الأرض السطحية صالحة للإنبات إذا صحت النظريات التى تفترض أن سطح الأرض كان فى فترة ملتهباً ثم صَلْباً، لا توجد فيه التربة التى تُنبتُ الزرع، ثم كانت التربة بتعاون الماء والعوامل الجوية على تحويلها إلى تربة لينة، ثم ظل الماء يشارك فى إخصاب هذه التربة، وذلك بإسقاط [النتروچين- الأزت] من الجو كلما أبرق، فاستخلصت الشرارة الكهربائية التى تقع فى الجو، النتروچين الصالح للذوبان فى الماء، ويسقط مع المطر، ليعيد الخصوبة إلى الأرض، وهو السماد الذى قلد الإنسان القوانين الكونية فى صنعه، فأصبح يصنعه الآن بنفس الطريقة، وهو المادة التى يخلو وجه الأرض من النبات لو نفذت من التربة.

فالله سبحانه وتعالى هو الذى أنزل من السماء ماءً بقدر، مباركاً، ورزقاً للعباد، وإحياءً وغياثاً للخلائق، رحمةً من الله بخلقه، فأخرج بهذا الماء كل أصناف النبات، ومنه الزرع، والشجر الأخضر.

قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ﴾ [الأنعام: ٩٩].

وكل نبت يبدأ أخضر، واللفظ«خضراً» أرق ظلاً، وأعمق ألفة من لفظ . «أخضر» .

ومن النبات الأخضر ما يخلق الله فيه الحبَّ الذى يركب بَعْضُهُ بَعْضناً كالسنابل، ومنه النخل الدانية العزوق، القريبة التناول.

ويخرج بهذا الماء جنات من أعناب، ويخرج به الزيتون والرمان المتشابه فى الورق والشكل، والمتخالف فى الثمار، شكلاً، وطعماً، وطبعاً. كل ذلك يستأهل النظـر، ولذلك أمر الله بالنظر إلى ثمره حين نضجه . ﴿**انظروا إلى ثمره إذ أثمر وينعه**﴾ انظروا إليه بالحسن البصير، والقلب اليقظ. وانظروا إليه فى ازدهاره، وازدهائه، عند كمال نضجه. انظروا إليه، واستمتعوا بجماله. ليتفكر الإنسان فى قدرة خالقه من العدم إلى الوجود، فبعد أن كان حطباً صار رطباً، ولقد خلق الله سبحانه وتعالى من الألوان، والأشكال، والطعوم، والروائح الكثير. إن فى هذا كله لآيات، ودلالات، على كمال قدرة خالق هذه الأشياء.

وهذا التناسق الملحوظ هو الجدير بصنعه الله، الذى أحسن كل شئ خلقه، ولم يجعل خلائقه متعادية، متدابرة، بل جعل الإنسان يعيش فى كون مأنوس صديق، وفى رعاية قوة حكيمة مدبرة. يعيش مطمئن القلب، ينهض برسالته فى الحياة وهو مطمئن اطمئنان الواثق بأنه معان، ويتعامل مع الكون بروح المودة والصداقة.. ويتحرك لمواجهة كون صديق، مكن الله له فيه وجعل له فيه أرزاقاً ومعايش، ويسر له المعرفة، وجعل نواميس هذا الكون موافقة لوجود هذا الإنسان.

﴿**إن فى ذلكم لآيات لقوم يؤمنون**﴾ فالإيمان هو الذى يفتح القلب، وينير البصيرة، وينبه أجهزة الاستقبال والاستجابة فـى الفطرة، ويصل الكائن الإنسانى بالوجود، ويدعو الوجدان إلى الإيمان بالله خالق الجميع.

والمؤمنون هم الذين تتفتح قلوبهم لآيات الله المبثوثة فى الأرض وفى السماء، والمؤمنون هم الذين يدركون الآيات لأنهم مفتوحو البصائر والمشاعر لتلقى الإدراك.

* * *

من آيات الله

فى رفع السموات بغير عمد

قال الله تعالى فى سورة الرعد: ﴿ **اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الأَمْرَ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لَعَلَّكُم بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ** ﴾ [الرعد: ٢].

يذكر علماء التفسير: أنه إذا لم يكن للناس عقول تعقل هذه الآيات التى حملها رسول الإسلام فى الكتاب المبين، أفلا كانت لهم أعين تنظر فى هذا الوجود، الذى أوجده الله سبحانه وتعالى من عدم، وأقامه على هذا النظام البديع.

وإذا لم يكن لهم نظر ينظرون به فى هذا الملكوت، أفليست لهم آذان يسمعون بها هذا النداء الإلهى الذى يناديهم به الحق جل وعلا، ليستيقظوا من نومهم، ولينتبهوا من غفلتهم.. ألا من كانت له أذنان فليسمع.. وألا من كانت له عينان فلينظر.. وألا من كان له قلب فليخشع.

لقد كانت الآية: ﴿ **الله الذى رفع السموات بغير عمد ترونها..** ﴾ لمسة فى مجال الكون الهائل، وهى بذاتها لمسة للوجدان البشرى، وهو يقف أمام هذا المشهد الهائل يتملاه ويدرك أنه ما من أحد يقدرُ على رفعها بلا عَمَدٍ أو حتى بَعَمدٍ إلا الله.

وقصارى ما يرفعه الناس بَعَمد أو بغير عَمَد، تلك البنيان الصغيرة الهزيلة القابعة فى ركن ضيق من الأرض لا تتعداه، ثم يتحدث الناس عما فى تلك البنيان من عظمة، ومن قدرة، ومن إتقان، غافلين عما يشملهم ويعلوهم، من سماوات مرفوعة بغير عَمَد، وعما وراءها من القدرة الحقة، والعظمة الحقة، والإتقان الذى لا يتطاول إليه خيال إنسان.

ففى السموات وفى هذا الملكوت الذى يَقْصرُ الطرف عنه، ويضيق الخيال عن تصوره، منطلق لجميع العقول، ومسبح لكل المدركات.. وهيهات أن يكون لمن لم يرفع بَصَرَهُ إلى هذا الملكوت، ولم يَسْرَح بخياله، مع شموسه، وأقماره، وكواكبه، ونجومه.

قال تعالى فى سورة آل عمران: ﴿**وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ**﴾ [آل عمران: ١٩١].

وقال تعالى فى سورة الأعراف: ﴿**أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ**﴾[الأعراف: ١٨٥].

وقال تعالى فى سورة يونس: ﴿**قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ**﴾[يونس: ١٠١].

وفى سورة لقمان يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿**خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا**﴾ [لقمان: ١٠].

فالله سبحانه وتعالى يخبر عن كمال قدرته وعظيم سلطانه أنه الذى بإذنه وأمره رفع السموات بغير عمد، بل بإذنه وأمره وتسخيره، رفعها عن الأرض بعداً لا تُنَال ولا يُدْرَكُ مداها. فالسماءُ محيطةٌ بجميع الأرض وما حولها من الماء والهواء من جميع نواحيها وجهاتها وأرجائها مرتفعة عليها من كل جانب على السواء.

ويقول سبحانه وتعالى: ﴿**أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا (٢٧) رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا**﴾ [النازعات ٢٧: ٢٨]. والمتأمل فى الآية: ﴿**الله الذى رفع السموات بغير عمد**﴾ يجد أن القرآن الكريم يمسك بعد هذا العرض العام للعالم العلوى بظاهرتين بارزتين من مظاهر هذا العالم وهما: الشمس والقمر، ففيهما مجال لنظر الناظرين، وتدبر المتدبرين. ذلك أنه إذا غفل الإنسان الغافل الجهول، عن الوقوف على ما فى السموات من آيات بينات تحدث عن قدرة القدير، وحكمة الحكيم، وعليم العليم، فإنه لن يستطيع ولو حاول أن يغمض عينيه عن الشمس

والقمر، اللذين يملآن عليه وجوده وفى هذا يقول: ﴿**وسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى**﴾.

ويقول ﴿**وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ**﴾ [الأعراف: ٥٤].

وقال تعالى فى سورة فصلت: ﴿**لا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ**﴾ [فصلت: ٣٧].

وبعد كل هذا نمضى مع السياق: ﴿**اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُّسَمًّى**﴾ [الرعد: ٢].

فالسياق يقضى أن يكون الجريان إلى حدود مرسومة، ووفق ناموس مقدر، سواء فى جريانهما فى فلكيهما دورة سنوية، ودورة يومية، أو جريانهما فى مداريهما لا يتعديانه ولا ينحرفان عنه، أو جريانهما إلى الأمد المقدر لهما.

﴿**يدبر الأمر**﴾ أى يُقَدّرُ لكل شئ قدره. كما يقول سبحانه فى سورة الطلاق: ﴿**قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا**﴾ [الطلاق: ٣]. والأمر: الأمر كله على هذا النحو من التدبير الذى يسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى.

والذى يمسك بالأفلاك الهائلة، والأجرام السابحة فى الفضاء، فَيُجْرِيَها لأجل لا تتعداه، لا شك عظيم التدبير، جليل التقدير.

ومن تدبير الأمر أنه يفصلُ الآيات، وينظمها وينسقها، ويعرض كلا فى حينه، ولعلته، ولغايته. وذلك لتنكشف الآياتُ للناس، ولتتضح لهم معالم الحق فيها.

﴿**لعلكم بلقاء ربكم توقنون**﴾ حين ترون الآيات مفصلة، منسقة. ومن ورائها آيات الكون، تلك التى أبدعتها يد الخالق أول مرة، وصورت لكم آيات القرآن ما وراء إبداعها، من تدبير، وتقدير، وإحكام، ولعلكم ترون هذا الوجود فى الآيات المفصلة المبثوثة ما يدعوكم إلى الإيمان بالله، فإذا آمنتم بالله آمنتم بلقائه، وعملتم لهذا اللقاء حسابه، وأيقنتم أنكم مَجْزِيون على ما تعملون من خير أو شر، وذلك من كمال التقدير الذى توحى به حكمة الخلق.

والدلائل كما تدل على وجود الله الحكيم، فهى أيضاً تدل على القول بالحشر لأن من قدر على خلق السموات والأرض، وتسخير الشمس والقمر، فلأن يقدر على الحشر والنشر كان أولى.

يروى أن رجلاً قال لعليٍّ بن أبى طالب رضى الله عنه: كيف يُحَاسِبُ الخلقَ دَفْعةً واحدة؟ فقال عليٌّ رضى الله عنه: كما يرزقهم الآن دَفْعةُ واحدةً، ويسمع ندائهم، ويجيب دعائهم الآن دفعة واحدة.

ويقول علماء التفسير فى قوله تعالى: ﴿ **لعلكم بلقاء ربكم توقنون** ﴾ بدلاً من قوله [تؤمنون] إشارة إلى أن هذا الإيمان الذى يجئ عن طريق النظر والتأمل فى آيات الله الكونية، هو الإيمان الكامل الذى يصل إلى مرتبة اليقين.

وهذه الآيات دعوة من الله عز وجل للإنسان، ليكشف عن أسرار هذا الكون بما أودعهُ من سلطان العقل، ليعرف جلال الله فى عظمة ملكه، وعظيم قدرته فى إبداع خَلْقِه، وحكمته فى بديع صنعه.

فالله سبحانه وتعالى جعل تدبيره وتفصيل آياته ﴿ **يدبر الأمر يفصل الآيات** ﴾. علامتين تدلان على الرجوع إليه، فمن لم ير فى كمال تدبيره فى خلقه، وفى كمال تفصيله فى آياته، ما يدل على الرجوع إليه، فإنه لم يعرف حكمة التدبير والتفصيل. والتدبير والتفصيل علامتان على اليوم الآخر، فلم يكن التدبير عبثاً، ولم يكن التفصيل عبثاً، بل من أجل أن يعرف الإنسان أنه راجع إلى ربه.

* * *

من آيات الله

فى مد الأرض

قال تعالى فى سورة الرعد: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الرعد: ٣].

والمتأمل فى هذه الأية الكريمة : يجد أن الخطوط العريضة فى لوحة الأرض، هى مدُّ الأرض وبسطها أمام النظر، وانفساحُها على مداه. لا يهم ما يكون شكلها الكلى فى حقيقته، إنما هى مع هذا ممدودة، مبسوطة، فسيحة، متسقة.

هذه هى كما يقول صاحب الظلال: اللمسة الأولى فى لوحة الأرض، ثم يأتى بعد ذلك رسم خط الرواسى الثوابت من الجبال، وخط الأنهار الجارية فى الأرض، فتتم الخطوط العريضة الأولى فى المشهد الأرضى متناسقة متقابلة.

وهنا على هذه الأرض معارض مختلفة، تتفاوت فيها أنظار الناظرين. فبعض الأنظار تقف على حدود النظرة الملقاة على هذه الأرض، فلا ترى إلا آفاقاً فسيحة ممتدة، تتحرك عليها أشياءٌ أشبه بالأطياف، لا تتبين العين فيها شيئاً، على حين تَنْفُذُ بعض الأبصار إلى مدارج النمال، وأفاحيص القطا، فترى فيها من عظمة القدرة، وجلال العلم، وروعة الحكمة، ما يملأ القلب خشوعاً، وولاء، وحمداً للخلاق العظيم، ربِّ العالمين.

فهذه الأرض المبسوطة على امتداد البصر، تقف عندها بعض الأنظار، ولا تتجاوزها. وهذه الجبال الراسية عليها هى أبرز ما على هذه الأرض، تتعلق بها الأنظار، وتُمْسكُ بها، ثم هذه الثمار التى معاش الإنسان إن لم يلتفت إليها ببصره ألجأته الحاجة إلى أن يسعى إليها بقدمه، ويقلب وجوه الأرض باحثاً عنها

بيده. وقد حَفَلت سورة الرحمن بمشاهد من النعم الأرضية التى تبهج النفوس، وتؤثر فى الأحاسيس، وهى تدل على ما جعل الله فى الأرض من مظاهر النعم والمنافع للعباد، مما سخر لمنفعتهم وخدمتهم. قال تعالى: ﴿وَالأَرْضَ وَضَعَهَا لِلأَنَامِ ﴿١٠﴾ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الأَكْمَامِ ﴿١١﴾ وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ ﴿١٢﴾ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: ١٠-١٣].

وانتفاع الإنسان بما فى الأرض من النعم تكريمٌ له، وإعلاءٌ لشأنه، وإظهار لمعنى خلافته فى الأرض. قال تعالى فى سورة الإسراء: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾ [الإسراء: ٧٠].

وفى تذليل الأرض، وتمكين الإنسان من الانتفاع بها، ما مهد له سبل الحياة عليها والانتفاع الكامل بها، وتلك نعمة كبرى. قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [الأعراف: ١٠].

إن الله خالق الأرض وخالق الناس، هو الذى مكن لهذا الجنس البشرى فى الأرض وهو الذى أودع الأرض هذه الخصائص والموافقات الكثيرة التى تسمح بحياة الجنس البشرى، وهو الذى جعلها مقراً صالحاً لنشأته، بجوها، وتركيبها، وحجمها، وبعدها عن الشمس والقمر، ودورانها حول الشمس، وميلها عن محورها، وسرعة دورانها إلى آخر تلك الموافقات.

وإذا كانت الخطوط العريضة فى لوحة الأرض هى مد الأرض فمما يناسب الخطوط الكلية، ما تحتويه الأرض من الكليات، وما يناسب الحياة فيها من كليات كذلك.

وتتمثل الأولى: فيما تنبت الأرض: ﴿ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين﴾.

وتتمثل الثانية: فى ظاهرتين الليل والنهار ﴿يغشى الليل النهار﴾ والمشهد الأول: يتضمن حقيقةً لم تُعرفْ للبشر من طريق علمهم وبحثهم إلا قريباً، وهى أن كل الأحياء- وأولها النبات- تتألف من ذكر وأنثى حتى النباتات، التى كان

مظنوناً أن ليس لها من جنسها ذكور، تبين أنها تحمل فى ذاتها الزوج الآخر، فتضم أعضاء التذكير وأعضاء التأنيث، مجتمعة فى زهرة متفرعة فى العود، وهى حقيقة تتضامن مع المشهد، فى إثارة الفكر، إلى تدبر أسرار الخلق، بعد تملى ظواهره.

والمشهد الثانى: مشهد الليل والنهار متعاقبين، هذا يغشى ذاك فى انتظام عجيب، هو ذاته مثار تأمل فى مشاهد الطبيعة.. فَقُدُومُ ليلٍ، وإدبار نهار، أو إشراق فجر، وانقشاع ليل، حادث تُهَوِّن الألفة من وقعه فى الحسن، ولكنه فى ذاته حادث عجيب، لمن ينْفضُ عنه موات الألفة وخمودها، ويتلقاه بحس الشاعر المتجدد، الذى لم يُجمِّده التكرار.

وهذا الليل الذى يغشى النهار ويَلْبسُهُ، ويجعل بياضَه سواداً، ونوره ظلاماً، هذا الليل يشد الأبصار شّداً إليه، لتتلمس طريقها فيه، وتَرْصُدَ المخاوف التى تطلع عليها منه.

والنظام الدقيق الذى لا تتخلف معه دورة الفلك، هو بذاته كذلك مثار تأمل فى ناموس هذا الكون، وتفكير للإنسان فى القدرة المبدعة، التى تدبره وترعاه ﴿**إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون**﴾.

ففى كل هذا أيات دلائل على وجود الخالق، وعلى قدرته، وعلمه. ولكن هذه الأيات لا تنكشف إلا لمن وجه إليها بصره، وأعمل فيها فكره، أما من أعراض عنها، وأغلق عقله وقلبه دونها، فإنه لا يرى من هذه الآيات إلا عوالم جامدة صماء، لا تنطق بشئ، ولا تحدث عن شئ.

قال تعالى فى سورة الجاثية: ﴿ **إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ**﴾ [الجاثية: ٣].

والمؤمنون هم الذين تتفتح قلوبهم لآيات الله المبثوثة فى تضاعيف هذا الكون وثناياه. وحيثما قد الإنسان بَصَرَه، وجد آيات الله تطالعه فى هذا الكون الرحيب.. السموات بأجرامها وأفلاكها، والليل والنهار.

إن لحظة تأمل فى السموات، ولحظة تأمل فى صبح أو مساء، فى هدأة الليل أو فى زحمة النهار، لحظةً واحدة يتسمع فيها القلب البشرى إلى إيقاعات هذا الوجود العجيب.

ولو مضت الأجيال تتأمل فى آيات الله، وتشير مجرد إشارة إلى ما فيها من عجائب، لانتفعت بالآيات، وازداد إيمانها بالخالق الذى خلق.

ولا شك فى أن تدبر هذا الكون وما فيه من نواميس متناسقة، كفيل بهداية القلب إلى خالق هذا الكون.

* * *

من آيات الله

فى الأرض

قال تعالى فى سورة الرعد: ﴿ **وَفِي الأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الأُكُلِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ** ﴾ [الرعد: ٤].

هذه الآية الكريمة تعرض مشاهد أرضية، وهذه المشاهد الأرضية كثير من الناس يمرون عليها فلا تثير فيهم حتى رغبة التطلع إليها إلا أن ترجع النفس إلى حيوية الفطرة والاتصال بالكون الذى هى قطعة منه، انفصلت عنه لتتأمله ثم تندمج فيه.

﴿ **وفى الأرض قطع متجاورات** ﴾ أراض يجاور بعضها بعضاً ثم هى فى التجاور مختلفة، فهذه طيبة تنبت ما ينفع الناس، وهذه سبخة مالحة لا تنفع الناس، وهذه تربتها حمراء، وهذه بيضاء، وهذه صفراء، وهذه سوداء، وهذه محجرة، وهذه سهلة، وهذه مُرمَّلة، وهذه سميكة، وهذه رقيقة.. وكل واحد من هذه وتلك أنواع، وألوان، ودرجات.. منها المقفر الجدب، ومنها الصخر الصلد، ومنها العامر الغامر، ومنها المزروع الحى، والمهمل الميت، ومنها الريان والعطشان.. ومنها ومنها ومنها، وهى كلها فى الأرض متجاورات، يجاور بعضها بعضاً فى تربتها وانتفاعها بأشعة الشمس.

هذه اللمسة العريضة فى التخطيط ﴿ **وفى الأرض قطع متجاورات** ﴾ تتبعها تفصيلات تبدأ بقوله تعالى: ﴿ **وجنات من أعناب وزرع ونخيل** ﴾ أى وفى الأرض حدائق وبساتين كثيرة مزروعة فى قطع الأرض المتجاورة، وتشتمل على أشجار الكروم التى تثمر العنَبَ والزبيب، وتشتمل أيضاً على الزرع الذى يثمر أنواع الحبوب والبقول، وفيها النخل الذى يثمر البلح، والرطب، والتمر.

وقوله تعالى: ﴿**وجنات من أعناب وزرع ونخيل**﴾ تمثل ثلاثة أنواع من النبات الكَرْمُ المتسلق، والنخل السامق، والزرع من بقول، وأزهار، وما أشبه ذلك، مما يحقق تلوين النظر، وملء فراغ اللوحة الطبيعية، والتمثيل لمختلف أشكال النبات. وقوله تعالى: ﴿**وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان**﴾ لفتة لتنبيه الإنسان إلى بعض مظاهر قدرة الله وحكمته سبحانه وتعالى. والصنوان: جمع صنو، والصنوان الشجرة التى لها رأسان وأصلها واحد. فالصنوان هو الأصول المجتمعة فى منبت واحد، كالرمان، والتين، وبعض النخيل، ونحو ذلك.

وغير الصنوان ما كان على أصل واحد كسائر الأشجار، أى وفى الأرض أنواع الزروع وأنواع النخيل، ذات الساق الواحدة، أو السيقان المتعددة.

ونلاحظ فى الآية: ﴿**وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان**﴾ أنها لم تَرْمِ إلى استيعاب حاصلات البساتين، إنما ذكرت نموذجاً لما يَتسلَّقُ ويقومُ على عرائش وهو الأعناب، وآخر للشجر الذى يقوم على ساق وهو النخيل الذى له جذوع صلبة وطويلة، أما الزرع فإنه شامل لكل أنواع الحبوب والبقول وقوله تعالى: ﴿**يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض فى الأكل**﴾ بعد قوله تعالى: ﴿**وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان**﴾ يفيد التعجب من قدرة الله تعالى، فيما يبدعه فى عالم البساتين، حيث بينت أن هذا النبات والشجر، على اختلاف كل منهما يُسقى بماء واحد، فى أرض متجاورة ومتشابهة في التربة والجو، ولكن الثمرات متنوعةً فى الطعم، والشكل، واللون، والرائحة، وربما كان ذلك فى الشجرة الواحدة.

فهذا الاختلاف فى أجناس الثمرات والزروع، فى أشكالها، وألوانها، وطعومها، وروائحها، وأوراقها. هذا فى غاية الحلاوة، وهذا فى غاية الحموضة، وهذا فى غاية المرارة، وهذا بين بين، وهذا اجتمع فيه هذا وهذا، وهذا أصفر، وهذا أبيض، وهذا أسود.

ولا شك أن هذا ناشئ من أن وراء الطبيعة رباً حكيماً، هو الذى يوزع

النواميس والطبائع ويبدع غير المألوف، ويخالف المألوف، ليعرفه عباده بما يبدعه لهم، من هذه المؤتلفات والمختلفات.

ولو كانت الطبيعة هى الفاعلة لما وقع هذا الاختلاف، بل لما وجد من ذلك شئ، فإن الطبيعة لا عقل لها ولا إرادة، فمن غَيْر الخالق المدبر المريد يفعل هذا وذاك.

مَن منَّا لم يذق الطعوم مختلفات، فى نبت البقعة الواحدة. فكم منا التفت هذه اللفتة، التى وجه القرآن إليها العقول والقلوب؟.

إنه بمثل هذا يَبْقَى القرآن جديداً أبداً، لأنه يجدد أحاسيس البشر، بالمناظر والمشاهد، فى الكون والنفس، وهى لا تنفذ، ولا يستقصيها إنسان فى عمره المحدود، ولا تستقصيها البشرية فى أجلها الموعود.

قال تعالى: ﴿**إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون**﴾ أى فى اختلاف الأراضى، وجنات الأعناب، والزروع، والنخيل المتعدد الأصل، وغير المتعدد، واختلاف الثمرات، مع كون الماء الذى به نماء النبات واحداً. لآيات ودلائل تشهد بقدرة الخالق، وتَحدِّثُ عن علمه، وحكمته، ولكن ذلك لا يقع إلا لمن كانت لهم عقول، تفرق بين المحسوسات.

إذ كانت تلك الآيات من الظهور والبيان بحيث لا تخفى على أى إنسان له مَسْكَةٌ من عقل. فكل إنسان احتفظ بإنسانيته قادرٌ على أن يوجه عقله، إلى تلك الآيات، وينتفع بها فى التعرف على خالقه.

وفى الآية الكريمة: ﴿**وَفِي الأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الأُكُلِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ**﴾ [الرعد: ٤].

فيها معارض متعددة، يعيش فيها الإنسان بكيانه كله، ويلقاها بحواسه جميعاً البصر، والشم، والذوق، واللمس، فإذا لم يكن وراء هذه الحواس عقلاً يدرك، فقد خرج الإنسان من عالم البشر إلى عالم الحيوان، ولم يكن أهلاً

للخطاب والتكليف. تلك هى دعوة الإسلام للعقل كى يتعرف على الله، ويسلك سبيله إليه، بالنظر فى ملكوته والتدبر فيما أبدع وصور. وإن العقل على أى مستوى لن يخطئه الطريق إلى الله إذا هو وقف بين يدى تلك الأيات متجرداً من الأهواء الفاسدة، والموروثات الضالة، وأعطى لنفسه الحق فى الاستقلال بعقله، والإصغاء إلى صوت ضميره.

* * *

من آيات الله

فى الماء

قال تعالى فى سورة النحل : ﴿ هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنبِتُ لَكُم بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالأَعْنَابَ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [النحل : ١٠].

هاتان الآيتان من سورة النحل تذكر أن بعض نعم الله على خلقه، فإنه سبحانه وتعالى ينزل الماء من السماء وفق النواميس التى خلقها، فى هذا الكون والتى تدبر حركته، وتنشئ نتائجها وفق إرادة الخالق وتدبيره، بقدر خاص.

فالقرآن الكريم يتخذ من مشاهد الماء دلائل على إثبات وجود الخالق سبحانه، فهذا الماء النازل من السماء ما هو؟ وكيف نزل؟.

إن الإنسان يمر بهذه الخارقة سراعاً لطول الألفة، وطول التكرار، إن خلق الماء فى ذاته خارقة، ومهما عرف الإنسان أنه ينشأ من اتحاد ذرتى أيدروچين بذرة أكسوجين تحت ظروف معينة.. فإن هذه المعرفة جديرة بأن توقظ قلوب الناس إلى رؤية يد الله التى صاغت هذا الكون بحيث يوجد الأيدروچين ويوجد الأكسوچين، وتوجد الظروف التى تسمح باتحادهما، ويتكون الماء من هذا الاتحاد، ومن ثم وجود الحياة فى هذه الأرض، ولولا الماء ما وجدت حياة، إنها سلسلة من التدبير حتى تصل إلى وجود الماء ووجود الحياة. والله عز وجل من وراء هذا التدبير، وكله مما صنعت يداه. ثم نزول هذا الماء بعد وجوده هو الآخر خارقة جديدة، ناشئة من قيام الأرض والكون على هذا النظام الذى يسمح بتكوين الماء ونزوله وفق تدبير الله.

قال تعالى فى سورة الانعام : ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ

وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انظُرُوا إِلَىٰ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأنعام: ٩٩].

وقال تعالى فى سورة الزمر: ﴿ **أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ** ﴾ [الزمر: ٢١].

إن نزول الماء من السماء آية توقظ القلوب، وتنبه العقول إلى قدرة الخالق، فإنه سبحانه يسلط أشعة الشمس على البحار والأنهار، فيخرج منها بُخارٌ يتحول إلى سحاب، ويسلط عليه الرياح، فتحمله إلى حيث يشاء الله، فينزل منه ماء عذباً. قال تعالى فى سورة الروم: ﴿ **اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ** ﴾ [الروم: ٤٨].

وقال تعالى فى سورة الأعراف: ﴿ **وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّىٰ إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ** ﴾ [الأعراف: ٥٧].

هذا الماء الذى ينزل على الأرض يشرب منه الانسان ﴿ **لكم منه شراب** ﴾ فالقرآن يبرز خصوصية الشراب فى هذا المجال على أنه نعمة من نعم الله، وآية من آياته، ثم يبرز أيضاً خصوصية المرعى ﴿ **ومنه شجر فيه تسيمون** ﴾ وهى المراعى التى تربى فيها السوائم، وسميت الأنعام سائمة لأنها تسم الأرض بأرجلها أى تترك فيها أثراً أو تسم المراعى بما تأكل منها فتترك آثارها عليها.

هذا الماء الذى يشرب منه الإنسان والحيوان يقول رب العزة فيه ﴿ **ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات** ﴾. أى ينبت لكم بالماء الذى أنزله من السماء أصنافاً مختلفة من النبات، بدأتها الآية الكريمة بالزرع لأنه أصل الغذاء، وعمود المعاش، وبه قوت أكثر العالم، ثم أتبعته بذكر الزيتون لأنه غذاء ودواء، وقدمت النخيل على الأعناب لأن فيها غذاء متكاملاً، وفوائد أخرى، ولأنها ينتفع بها زمناً طويلاً. والمراد بالأعناب ثمار العنب، ثم خَتَمَتْ الآية الكريمة ما ذكرته من أصناف النبات والشجر بقوله تعالى: ﴿ **من كل الثمرات** ﴾ للإيذان بأن ما ذُكِرَ من قبل إنما هو بعض النعم، وإن خيرات الله، وثمرات

الشجر، تفوت الحصر. ولا شك أن هذه النعم تدفع الإنسان إلى التفكير والتأمل، ولذلك قال الله تعالى: ﴿**إن فى ذلك لآية لقوم يتفكرون**﴾ أى يتفكرون فى تدبير الله لهذا الكون ونواميسه المواتية لحياة البشر.

وما كان الإنسان يستطيع الحياة على هذا الكوكب لو لم تكن نواميس الكون مواتية لحياته موافقة لفطرته ملبية لحاجاته.

وما هى بالمصادفة العابرة أن يخلق الإنسان فى هذا الكوكب الأرضى، وأن تكون النسب بين هذا الكوكب وغيره من النجوم والكواكب هى هذه النسب، وأن تكون الظواهر الجوية والفلكية على ما هى عليه ممكنة للإنسان من الحياة، ملبية هكذا لحاجاته على النحو الذى نراه.

والذين يتفكرون هم الذين يدركون حكمة التدبير، وهم الذين يربطون بين ظاهرة كظاهرة المطر، وما تنشئه على الأرض من حياة، وشجر، وزروع، وثمار، وبين النواميس العليا للوجود. ودلالتها على الخالق، وعلى وحدانية ذاته، ووحدانية إرادته، ووحدانية تدبيره.

أما الغافلون فيمرون على مثل هذه الآيات فى الصباح والمساء، فى الصيف والشتاء، فلا توقظ تطلقهم، ولا تثيروا استطلاعهم، ولا تستجيش ضمائرهم إلى البحث عن صاحب هذا النظام الفريد.

وهؤلاء وحدهم لا يرون، فمن تفكر رأى، وأن هؤلاء الذين يلحدون مصيبتهم أنهم لا يتفكرون، ولا يشعرون أنهم لا يتفكرون، بل يظنون أنفسهم أنهم مفكرون.

فما أحرى الإنسان أن يجعل آيات الله مسرحاً لنشاطه الفكرى والعقلى. والقرآن الكريم يلفت حسنً الإنسان وقلبه وعقله للنظر إلى ما فى السموات والأرض لعله ينبض، ويتحرك، ويتلقى، ويستجيب، قال تعالى فى سورة يونس ﴿قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ١٠١].

* * *

من آيات الله

فيما سخر

قال الله تعالى فى سورة النحل: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [النحل: ١٢].

فالشمس والقمر والنجوم والليل والنهار والبحار والأنهار والدواب وغيرها مما نعلم ومما لا نعلم كلها مخلوقة ومسخرة بأمره لنفع الإنسان. وكلها تشير إلى مظهر من مظاهر القدرة الإلهية، وما تفيض على الناس من نعم.

فبقدرته سبحانه وتعالى سخر لنا الليل والنهار، وجعلهما يتعاقبان على هذا النظام الذى قام عليه، وانتظم وجودنا به.

قال تعالى فى سورة إبراهيم ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ (٣٣) وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: ٣٣-٣٤].

وقال تعالى فى سورة الأعراف: ﴿وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤].

فقد سخر الله للإنسان ما فى السموات، وجعل فى مقدرته الانتفاع بشعاع الشمس، ونُور القمر، وهَدْيِ النجوم، وبالمطر، والهواء، والطير السابح فيه.

وسخر له ما فى الأرض، وهذا أظهر وأيسر ملاحظة وتدبراً، فقد أقامه خليفة فى هذا المُلْك الطويل العريض، ومكنه من كل ما تذخر به الأرض من كنوز، ومنه ما هو ظاهر ومنه ما هو مستتر، ومنه ما يعرفه الإنسان، ومنه ما لا يُدْرِكُ إلا آثاره، ومنه ما لم يعرفه أصلاً من أسرار القوى التى ينتفع بها دون أن يدرى.

وإنه لمغمور فى كل لحظة من لحظات الليل والنهار بنعم الله السابغة الوافرة التى لا يُدرك مداها، ولا يحصى أنماطَها.

ولقد دعا الله الإنسان إلى الكشف عن أسرار هذا الكون بما أودعه من سلطان العقل، ليعرف جلال الله فى عظمة ملكه، وعظيم قدرته فى إبداع خلقه، وحكمته فى بديع صنعه، ورحمته فى لطيف تدبيره.

قال تعالى فى سورة لقمان: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلا هُدًى وَلا كِتَابٍ مُّنِيرٍ﴾ [لقمان: ٢٠].

فالآيات القرآنية تنبه العقل البشرى فى كافة أفراده بأن خَلْقَ هذا الكون بجميع آياته السماوية والأرضية، وتسخير ما فيه من عناصر الحياة، ومظاهر النعم، إنما كان لأجل الإنسان الذى كرمه الله تعالى بخصيصة العقل، وفضله به على سائر ما حواه الوجود من مخلوقات لينتفع بها. ولا شك أن الانتفاع بأى من هذه المخلوقات التى امتن الله بخلقها وتسخيرها للإنسان. يقتضى أن يتعرف الإنسان فائدة المخلوقات، ولا يتحقق له ذلك إلا بعد معرفة حقائقها تفصيلاً، لأن معرفة الحقيقة يرشد إلى مواطن الانتفاع. فالبحث عن حقائق الموجودات سماوية أو أرضية هو فى نظر القرآن مهمة الإنسان ما دام على ظهر هذه الأرض لأنه وسيلة إلى استخلاص أكبر قسط من المنافع. فمن مظاهر التدبير فى الخلق، وظواهر النعمة على البشر، الليل والنهار، والشمس والقمر، والنجوم، فكلها يلبى حاجة الإنسان فى الأرض وهى لم تخلق له، ولكنها مسخرة لمنفعته. فظاهرة الليل والنهار ذات أثر حاسم فى حياة هذا المخلوق البشرى ومن يشاء فليتصور نهاراً بلا ليل، أو ليلاً بلا نهار، ثم يتصور مع هذا حياة الإنسان والحيوان والنبات فى هذه الأرض كيف تكون. قال تعالى فى سورة القصص: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ أَفَلا تَسْمَعُونَ (٧١) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ

يأتيكم بليل تسكنون فيه أفلا تبصرون ﴿٧٢﴾ ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون ﴾ [القصص: ٧١-٧٣].

ومن نعم الله الكثيرة كذلك على الإنسان أن سخر الشمس لتمدنا بالضوء والحرارة، وسخر القمر ليمدنا بالنور الهادئ المريح ليلاً، وجعل الشمس والقمر مراصد للتوقيت الزمنى، ولنعلم بهما مواقيت العبادات، وعدد السنين، والحساب.

قال تعالى فى سورة يونس: ﴿ **هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب** ﴾ [يونس: ٥].

وكما سخر الله الليل والنهار والشمس والقمر سخر النجوم، فهى مسخرات بمشيئته وتمكينه إياها من أداء ما خلقت لأجله.

وفى قوله تعالى: ﴿ **والنجوم مسخرات بأمره** ﴾ يمكن أن تكون الواو فى ﴿ **والنجوم** ﴾ للحال، والجملة بعدها حالاً من فاعل الفعل (سخر) وهو الله سبحانه وتعالى، والتقدير سخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر، فى حال أن النجوم مسخرات بأمره.

وبهذا يرتبط النظام الكونى والنجوم بعضه ببعض، وتنتظمه حال واحدة، وهى التسخير لقدرة الله.

ويمكن أن تكون الواو فى ﴿ **والنجوم** ﴾ للاستئناف لا للعطف، على اعتبار أن للنجوم فى ظاهر الأمر وضعاً غير وضع الليل والنهار والشمس والقمر، إذ أن حركة الليل والنهار، والشمس والقمر حركةٌ تظهر آثارُها، وتَنْطَبِعُ صُورتَهَا على الوجود الأرضى بحيث يتأثر بها كل كائن فى هذا الوجود، ويُنْظَمُ وجوده عليها. وليس كذلك شأن النجوم، إذ يمكن أن يهمل الإنسان شأن النجوم فلا يلتفت إليها، ولا يقيم وزناً لوجودها دون أن تتأثر حياته كثيراً بذلك.

ومع هذا فإن للنجوم شأناً كشأن الشمس والقمر، وأنها مسخرة بيد القدرة كالشمس والقمر، وإن كان الإنسان فى غفلة عنها.

فالكرة الأرضية جزء من المجموعة الشمسية، والمجموعة الشمسية جزء من المجرة، والمجرة جزء من هذا الكون الواسع، والنجوم تخدم وجود هذا الإنسان على الأرض بأشكال شتى، ومن ذلك اهتداء الإنسان فى ظلمات البر والبحر بها، قال تعالى فى سورة النحل: ﴿**وَعَلامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ**﴾ [النحل: ١٦]. ﴿**إن فى ذلك لآيات**﴾ لدلالات واضحات وليس آيةً واحدة، لقوم يعقلون عندهم عقل يُحَكَّمونه، فيعرفون الظاهرة وما تدل عليه.

وذكر العقل بعد ذكر الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم للإشارة على أن الدلالة فى هذه على القدرة أبهر، والشهادة فيها على العظمة أبين، ومن ثَمَّ فيكفى للإنسان عقل ﴿**لعلكم تعقلون**﴾.

* * *

من آيات الله

فى النحل

قال تعالى فى سورة النحل: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٦٨-٦٩].

إن المتأمل فى مشاهد الحيوان من الدواب والطير، يجد عجائب تدل على ما ورائها من قدرة الله الباهرة فى الخلق والتركيب، وأن كل شئ فى الوجود ينقاد إليه، وكأن لكل شئ زماماً بيده، الإنسان فى الأرض، والملائكةُ والأفلاكُ فى السماء، والطير فى الهواء. يقول الله تعالى ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ﴾ [النور: ٤١] فكل من فى السموات من الملائكة، يسبح له طوعاً، وكل من فى الأرض يسبح له اختياراً، وتسبيح الطير له تسخيراً وانقياداً، ودالةً على حكمته، إذ هى منقادةٌ له، طائعة بخلقها، ويصرفها كما يشاء، ولسان حالها ناطق بتنزيه الله، شاهد بكمال قدرته، وأنه ليس كمثله شئ. وما من طائر إلا ويدل على خفيات القدرة الإلهية المبدعة.

وإذا وقف الإنسان أمام أحوال مخلوق صغير من مخلوقات الله، رأى عجباً يشد الانتباه؛ إنه النحل هذا المخلوق الصغير بجسمه، الكبير بهمته، ونظام حياته.

إن أحواله كلها لما تثير التأمل، وتستدعى التفكر؛ فمن ذا الذى جَبَل فى هذه المخلوقات الصغيرة، النشيطة، الدائبة الحركة، غريزة التجمع المفيد؟ من الذى ألهمها هذا النظام الدقيق الذى تعيش به جماعاتها، وتنتظم فيه أسرابها ؟حتى

غدت تتخذ من الجبال أكناناً لها، وتضعُ فيها عسلها الذى فيه شفاء للناس؟؟ إنه الله الذى ألهمها هذه القدرات، وأودع فيها هذه الطاقات.

قال تعالى: ﴿ **وأوحى ربك إلى النحل** ﴾ والإيحاءُ إلى النحل إلهامُها، والقذف فى قلوبها وتعليمها على وجه هو أعلم به، لا سبيلَ لأحد الوقوفَ عليه، وأحوالها دلائل بينة شاهدة، على أن الله أودعها علماً وفطنة. كما أولى الألباب عقولهم.

والنحل تعمل بإلهام من الفطرة التى أودعها إياها الخالق، فهو لون من الوحى تعمل بمقتضاه، وهى تعمل بدقة عجيبة، يعجز عن مثلها العقل المفكر، سواء فى بناء خلاياها، أو فى تقسيم العمل بينها، أو فى طريقة إفرازها للعسل المصفى.

وهى تتخذ بيوتها- حسب فطرتها- فى الجبال، والشجر، ومما يعرشون، أى ما يرفعون من الكروم وغيرها، وقد ذلل الله لها سبل الحياة، بما أودع فى فطرتها وفى طبيعة الكون حولها من توافق.

والنص على أن العسل فيه شفاء للناس هو ثابت بمجرد نص القرآن عليه، وهكذا يجب أن يعتقد المسلم إستناداً إلى الحق الكلى الثابت فى كتاب الله.

روى البخارى ومسلم عن أبى سعيد الخدرى، أن رجلاً جاء إلى رسول الله ﷺ فقال: إن أخى استطلق بطنه.

فقال له رسول الله ﷺ: «اسقه عسلاً».

فسقاه عسلاً. ثم جاء فقال: يا رسول الله سقيته عسلاً، فما زاده إلا استطلاقا، قال رسول الله ﷺ: «اذهب فاسقه عسلاً» فذهب فسقاه عسلاً. ثم جاء فقال: يا رسول الله ما زاده إلا استطلاقا، فقال رسول الله ﷺ: «صدق الله وكذب بطن أخيك، اذهب فاسقه عسلاً». فذهب فسقاه عسلاً فبرئ.

قال بعض علماء الطب: كان هذا الرجل عنده فضلات، فلما سقاه عسلاً وهو حار تحللت، فأسرعت فى الاندفاع، فزاده إسهالاً، فاعتقد الأعرابى أن هذا

يضره وهو مصلحة لأخيه، ثم سقاه فازداد التحليل والدفع، ثم سقاه فكذلك، فلما اندفعت الفضلات الفاسدة المضرة بالبدن استمسك بطنه، وصلح مزاجه، واندفعت الأسقام والآلام، ببركة إشارته - صلى الله عليه وسلم - عليه من ربه.

يقول صاحب الظلال: ويروعنا فى هذا الآثر يقينُ الرسول ﷺ أمام ما بدا واقعاً عملياً، من استطلاق بطن الرجل كلما سقاه أخوه، وقد انتهى هذا اليقين بتصديق الواقع له فى النهاية.

وهكذا يجب أن يكون يقين المسلم بكل قضية، وبكل حقيقة، وردت فى كتاب الله، مهما بدا فى ظاهر الأمر أن يسمى الواقع يخالفها، فهى أصدق من ذلك الواقع الظاهرى، الذى ينثنى فى النهاية ليصدقها.

وفى الصحيحين من حديث هشام بن هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة رضى الله عنها أن رسول الله ﷺ كان يعجبه الحلواء والعسل.

وعن ابن مسعود رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «عليكم بالشفاءين العسل والقرآن» وهناك أحاديث أخرى يشير فيها الرسول ﷺ إلى العسل كدواء وشفاء.

قال تعالى: ﴿**وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذى من الجبال بيوتا ومن الشجر ومما يعرشون**﴾ وسميت أعشاش النحل بيوتاً لأنها قائمة على نظام دقيق بديع، تحكمه هندسة دقيقة بارعة، يحار فيها عقل الإنسان.

وقوله تعالى: ﴿**ثم كلى من كل الثمرات فاسلكى سبل ربك ذللا يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس إن فى ذلك لآية لقوم يتفكرون**﴾ هو معطوف على ما قبله، أى مما ألهمهُ الله سبحانه وتعالى النحل، وجعله طبيعةً قائمة فيها، أن يكون طعامها من زهر الزروع وثمارها. والتقدير: وأوحى ربك إلى جماعة النحل أن اتخذى من الجبال بيوتاً، ثم كلى من كل الثمرات.

وفى توجيه الأمر إلى النحل فى قوله تعالى: ﴿**أن اتخذى من الجبال بيوتا**﴾ وقوله تعالى: ﴿**ثم كلى من كل الثمرات**﴾ وقوله تعالى: ﴿**فاسلكى سبل ربك ذللا**﴾

فى هذا الأمر إشارة إلى أن الوحى الصادر إلى النحل، ليس أمراً تكليفياً، وإنما هو أمر تقديرى.

ليس للنحل معه تفكير أو تدبير، بل هو أشبه بجهاز عامل فى كيان النحل، أو قل هو الجهاز العامل فى كيانه.

والأمر الموجه إلى النحل بأن يسلك سبل ربه ذُلُلاً. هو إذنٌ من الخالق جل وعلا للنحل أن ينطلق على طبيعته، وأن يسير على ما توجهه إليه غريزته، حيث لا تتصادم هذه الغريزة بشئ غريب يَدْخُلُ عليها من إرادة أو تفكير.

فالسبل التى تسلكها النحل فى بناء بيوتها، وفى تناول طعامها، وفى الشراب الذى تخرجه من بطونها، كل ذلك يجرى على سننٍ مستقيم لا ينحرف أبداً، ويسير فى طريق معبد مذلل، هو طريق لله، وهو فطرةُ الله.

وقوله تعالى: ﴿ **يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه** ﴾ هو جواب عن سؤال يقع فى الخاطر، حين يستمع المرء إلى كلمات الله سبحانه وتعالى عن النحل، وعن وحيه إليه، وأمرِه لَهُ. فيلفته ذلك كله إلى النحل، وإلى أن يسأل نفسه، ما شأن هذا النحل؟ وما الرسالة التى يؤديها هذا المخلوق الضئيل؟ فيكون الجواب: ﴿ **يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه** ﴾ يتلون بلون الغذاء الذى يتناوله، أما ثمرة هذه الرسالة، وأثرها فى الحياة، فذلك ما كشف عنه قوله تعالى: ﴿ **فيه شفاء للناس** ﴾.

إن هذا كله يدفع الإنسان إلى التفكير فى أمر هذا النحل، وفى ما وراء أفق النحل، ولذا كان فى كل هذا آية لقوم يتفكرون.

* * *

من آيات الله

فى الطير

قال تعالى فى سورة النحل: ﴿**أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلاَّ اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ**﴾ [النحل: ٧٩].

إن المؤمن المتفكر فى ملكوت الله، وما خلق الله من إنسان وحيوان، وما رفع من سماء، وما مهد من أرض، وما بث فيها من كل خلق، لابد أن يدرك بالفطرة السليمة، والعقل الواعى المدرك، بأن هذا من خلق من لا يخلق، وإن الخالق واحد أحد، حى قيوم ﴿**لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ**﴾ [الأنعام: ١٠٣] لا يعزب عن علمه شئ فى السماء ولا فى الأرض.

إن فى آيات الله فى الإنسان والحيوان والطير وكل شئ لآيات باهرات، آيات للمبصرين بعيونهم، والمبصرين بعقولهم وأفهامهم.

والنظر إلى ما فى السموات والأرض يمد عقل المؤمن وقلبه بزاد من المشاعر والتأملات وزاد من الاستجابات والتأثرات، وَقَدرٍ من سعة الشعور بالوجود، ومن التعاطف مع هذا الوجود، فيزداد إيمانه بوجود الله، وجلاله، وتدبيره، وسلطانه، وحكمته، وعلمه.

والمؤمنون هم الذين تتفتح قلوبهم لآيات الله فى السموات وفى الأرض، وفى الآفاق وفى الأنفس. والمؤمنون هم الذين يدركون آيات الله، بوعى، ومشاعر، وبصائر. قال تعالى فى سورة الجاثية: ﴿**إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ** ③ **وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَابَّةٍ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ**﴾ [الجاثية: ٣-٤].

وقوله تعالى: ﴿**ألم يروا إلى الطير مسخرات فى جو السماء ما يمسكهن إلا الله إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون**﴾ هو إشارة إلى آية من آيات الله، خارج كيان الإنسان، وعالمه الداخلى.

فإذا لم يكن فى الإنسان نظر يرى به ما بداخل كيانه كما يقول سبحانه وتعالى : ﴿وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢١] فليقم نظره على هذا العالم الخارجى، وليوجه مدار نظره على هذا الطير السابح فى السماء، الصَّافِّ بأجنحته على هذا العالم الأثيرى، وليسأل نفسه، من يُمْسِك هذا الطير أن يقع على الأرض؟ ومن أعطاه تلك القدرة التى يقهر بها جاذبية الأرض، ويخرج بها عن سلطان هذه الجاذبية، فلا يسقط كما يسقط الإنسان العاقل إذا هوى من فوق شجرة أو دابة مثلاً.

﴿**ألم يروا إلى الطير مسخرات**﴾ أى ألم ينظروا إلى الطير حال كونها مسخرات، أى مذللات للطيران بما خلق الله لها من الأجنحة، وسائر الأسباب المواتية لذلك، كرقة قوام الهواء، والهامها بسط الجناح وقبضه كما يفعل السابح فى الماء. وقوله تعالى: ﴿**ألم يروا إلى الطير مسخرات فى جو السماء**﴾ جو السماء أى فى الهواء المتباعد من الأرض، فى سمت العلو، وإضافته إلى السماء لكونه فى جانبها.

ومشهد الطير مسخرات فى جو السماء، مشهد مكرر. قد ذهبت الألفة بما فيه من عجب، وما يتلفت القلب البشرى عليه إلا حين يستيقظ، ويلحظ الكون بعين الشاعر الموهوب. وإن تحليقة طائرٍ فى جو السماء، لتستجيش الحس الشاعر إلى القصيده حين تلمسه، فينتفض للمشهد القديم الجديد.

﴿**ألم يروا إلى الطير مسخرات فى جو السماء ما يمسكهن إلا الله**﴾ أى ما يمسكهن فى الجو عن الوقوع إلا الله عز وجل، بقدرته الواسعة، ونواميسه التى أودعها فطرة الطير، وفطرة الكون من حولها، وجعل الطير قادرة على الطيران، وجعل الجو من حولها مناسباً لهذا الطيران، وقد كان فى ثقل أجساد الطير، ورقة الهواء ما يقتضى وقوعها، إذ لا علاّقة من فوقها، ولا دعامة من تحتها، لأنها لم تتعلق بشئ من فوقها، ولا اعتمدت على شئ تحتها، ولو سلبها رب العزة ما أعطاها من قوة الطيران، لم تَقْدِر على النهوض ارتفاعاً. وقد كان العلماء قديماً يعلمون

تخلخل الهواء فى الطبقات العالية فى الجو، وهى نظرية لم تُدْرَسْ فى العلوم الطبيعية إلا حديثاً.

فقد أُثر عن بعض العلماء أنه قال: إن الطير يرتفع فى الجو اثنى عشر ميلاً ولا يرتفع فوق ذلك.

إن القدرة القادرة- قدرة الحكيم العليم- هى التى تُمسِكُ بهذا الطير السابح أو الصَّافِّ على موج الأثير فى جو السماء.

أليس فى هذا آية لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد؟ بلى إنها لآية لقوم لا يمكرون بآيات الله، ولا يخونون أنفسهم بما تحدثهم به من الحق، فينكرونه فى عناد ومكابرة.

﴿**إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون**﴾ إن فى ذلك التسخير فى الجو والإمساك فيه، على تلك الصفة لآيات ظاهرات، تدل على وحدانية الله سبحانه، وقدرته الباهرة لمن يؤمنُ باللَّهِ، وَيُقِرُ بِوِجْدَانِ ما تُعَايِنُه أبصارُهم وَتَحُسُّهُ حواسهم.

والقلب المؤمن هو القلبُ الشاعر، ببدائع الخلق، والتكوين، المدرك لما فيها من روعة باهرة، تهز المشاعر، وتستجيش الضمائر. وهو يعبر عن إحساسه بروعة الخلق، بالإيمان، والعبادة، والتسبيح.

إن لحظة تأمل فى الطائر السابح في الفضاء لحظة واحدة، يتسمع فيها القلب البشرى إلى إيقاعات هذه الوجود العجيب. إن لحظة واحدة لكافية لارتعاش هذا القلب بقشعريرة الإدراك الرهيب، والتأثر المستجيب.

ومما يَحْسُن أن نلحظه أن عرض القرآن الكريم لمشاهد الكون لم يكن مقصوداً لذاته، وإنما كان نقطة انطلاق لغاية وراء تلك المشاهد والآيات، وهى نقل الإنسان عن طريق التأمل والتفكر فى ملكوت السموات والأرض إلى الإيمان بالله وقد اقترنت المشاهد والآيات غالباً بالألفاظ الدالة على الحواس والتفكير، من نحو الرؤية، والنظر، والسماع، والإبصار، والتبصير.

وعندما يتلقى الإنسان منهجه عن ربه، تتحدد علاقته بالكون من حوله، فيدركُ أن كل ما فى الكون مسخر بأمر الله، وما على الإنسان إلا أن يستفيد من هذا التسخير بمقدار ما يتسع له إدراكه وعلمه.

وليس التفكر، والانتفاع، والاستمتاع، غايةً فى ذاته إنما هو نقطة الانطلاق للوصول إلى الخالق المبدع، فالإنسان عن طريق التفكر، والتأمل فى آفاق الكون يصل إلى مبدعه.

* * *

من آيات الله

فى الليل والنهار

قال تعالى فى سورة الإسراء: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً﴾ [الإسراء: ١٢].

يذكر العلماء: أن الناموس الكونى الذى يحكم الليل والنهار، يرتبطُ به سعىُ الناس للكسب، وعلمُ السنين، والحساب، ويرتبطُ به كسبُ الإنسان من خير وشر، وجزاؤه على الخير والشر، وترتبط به عواقب الهدى والضلال، وفردية التبعية، فلا تزر وازرة وزر أخرى. ويرتبط به وعدُ الله ألا يعذب حتى يبعث رسولاً، وترتبط به سنة الله فى إهلاك القرى بعد أن يفْسُقَ فيها مُترفُوها، وترتبطُ به مصائرُ الذين يطلبون العاجلة، والذين يطلبون الآخرة، وعطاء الله لهؤلاء وهؤلاء فى الدنيا والأخرة، كلها تمضى وفق ناموس ثابت، وسنن لا تتبدل، ونظام لا يتحول، فليس شئ من هذا كله جُزافاً ﴿**وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة**﴾ والليل والنهار آيتان كونيتان كبيرتان من آيات الله، تحدث كل آية منهما عن قدرة الله، وعن حكمته، وكل منهما مكملة للآخرى بل ومعلنة عنها، ومحققة لوجودها، فلولا الليل ما كان النهار، ولولا النهار ما عرف الليل.

وكذلك الخير والشر، آيتان من آيات الله فى الناس، كل منهما مكمل للآخر، ومعلن عنه، ومحقق لوجوده، فلولا الخير ما كان الشر، ولولا الشر ما عُرف الخير.

والدنيا والآخرة آيتان من آيات الله فى الناس، فكل منهما مكملة للأخرى، موصولة بها. فلولا الدنيا ما كانت الآخرة، ولولا الآخرة ما كانت الدنيا إلا لعباً

ولهواً، وما غرس الغارسون ما غرسوه فيها من معالم الحق والخير، وما أعدوا فيها هذا الزاد الطيب الكريم، الذى ادخروه للآخرة.

والليل والنهار آيتان من آيات الله، تشيران إلى دقة الناموس الذى لا يصيبه الخلل مرة واحدة، ولا يدركه التعطل مرة واحدة.

ويقول علماء التفسير فى قوله تعالى: ﴿**فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة**﴾ أن المقصود بالمحو: ظلمة الليل التى تخفى فيها الأشياء، وتسكن فيها الحركات والأشباح. فكأن الليل ممحوٌ إذا قيس إلى ضوء النهار، وحركة الأحياء فيه والأشياء، وكأنما النهار ذاته مُبْصرٌ بالضوء الذى يكشف كل شئ فيه للإبصار.

فمحو آية الليل: إشارة إلى أن الليل موقفٌ سلبى بالنسبة لحياة الإنسان. يخلد فيه الإنسان إلى الراحة، ويسلمُ فيه نفسه للنوم ليعبئ ذاته بأسباب القوة والنشاط، حتى يعمل فى وجوه الحياة، حين يطلع النهار بآيته المبصرة.

والليل هو الليل، وإن بدد الناس ظلامه بتلك المصابيح التى تجعل منه نهاراً، وأما يشبه النهار، فهو سكن الناس، وهو الظرف الذى يأخذون فيه حظهم من الراحة والنوم. قال تعالى فى سورة يونس: ﴿**هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِراً إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ**﴾ [يونس: ٦٧].

والليل والنهار آيتان من آيات الله، تنبهان الإنسان إلى ما يجب أن يتنبه له، من معرفة الخالق سبحانه وتعالى. ومشهد الليل الساكن، ومشهد النهار المبصر، خليقان أن يؤكد تدبير خلق الله لهذا الكون، مناسباً لحياة الإنسان، لا مقاوماً لها، ولا حرباً عليها، ولا معارضاً لوجودها أو استمرارها. ﴿**هو الذى جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصرا**﴾ وقد قرب القرآن الليل من الإنسان حتى جعله أقرب ما يكون إليه من ضروريات حياته، فوصفه بأنه لباس.. قال تعالى فى سورة الفرقان: ﴿**وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاساً وَالنَّوْمَ سُبَاتاً وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُوراً**﴾ [الفرقان: ٤٧].

وقال تعالى فى سورة النبأ: ﴿**وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا (٩) وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا (١٠) وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا**﴾ [النبأ: ٩-١١].

وقال تعالى فى سورة الأنعام: ﴿**فَالِقُ الإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ**﴾ [الأنعام: ٩٦].

وفى فلق الصبح واتيان الضياء من الشرق مقدمة لطلوع الشمس، ثم اتباعه بليلٍ يسكن الإنسان فيه، تقدير من عزيز عليم: آياتٌ ظاهرات، لكل من أراد أن يتذكر، ولكل ذى لب سميع.

أرأيت؟ إن هذه الآيات تذكرة للخاشعين ينظرون فيما بين أيديهم، وما خلفهم من خلق بديع، فيهديهم تفكيرهم: أن هذا لم يخلق عبثاً، إنما هو كونٌ مدبرٌ من لدن عزيز حكيم ﴿**وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلاً مِن رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً**﴾ [الإسراء: ١٢].

فالله سبحانه وتعالى يأتى لنا فى الصباح بالنهار لنسعى للرزق، ولنؤرخ لأنفسنا يوماً جديداً، لنعلم ما مر من زمن، فهذه سَنَةٌ، وبعدها سنون، وهذا حساب لنعاود به التذكار، فنعلم منه ما مر على الأمم السابقة من خير أو شر، فلولا هذا النهار المتكرر ما عرفنا أمس من غد.

وقوله تعالى: ﴿**ولتعلموا عدد السنين والحساب**﴾ أى أن الليل والنهار إذ يقتسمان الزمن، ويتداولانه فيما بينهما، كان سبباً فى معرفة الزمن، وفى رصد حركاته، وعد السنين وحسابها. ولو كان الزمن ليلاً سرمداً، أو كان نهاراً دائماً، لما عرف الناس للزمن حركة، ولما تولد لهم من حركته الأيام والسنون.

فباختلاف الليل والنهار عرف الإنسان حساب الأجال، ومواسم الأعمال، وعدد الأيامِ، والجمع، والشهور، والأعوام، وعرف الإنسان مُضىّ الآجال المضروبة للديون والعبادات والمعاملات، والإجارات والزمان ومحله من المكان.

قال تعالى فى سورة النور: ﴿يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِي الأَبْصَارِ﴾ [النور: ٤٤] وقال تعالى فى سورة فاطر: ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾ [فاطر: ١٣].

والآية: ﴿وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة لتبتغوا فضلا من ربكم ولتعلموا عدد السنين والحساب﴾ تختم بقوله تعالى: ﴿وكل شئ فصلناه تفصيلاً﴾. أى وكل شئ مما تفتقرون إليه فى دينكم ودنياكم، بيناه بياناً غير ملتبس فأزحنا عللكم، وما تركنا لكم حجة علينا فى ما خلقنا ولا فى ما أنزلنا. . وليس شئ ولا أمر فى هذا الوجود متروكاً للمصادفة والجزاف.

ودقة الناموس الذى يصرف الليل والنهار ناطقة بدقة التدبير والتفصيل. قال تعالى فى سورة يونس: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلاَّ بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝ إِنَّ فِي اخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٥، ٦].

* * *

من آيات الله

في الأرض

قال تعالى في سورة طه: ﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَىٰ ﴿٥٤﴾ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴾ [طه: ٥٣-٥٥].

إن الله خالق الأرض، وخالق الناس هو الذى مكن لهذا الجنس البشرى فى الأرض، وهو الذى أودع الأرض الخصائص والموافقات الكثيرة التى تسمح بحياة الجنس البشرى، بما فيها من أسباب الرزق والمعايش، هو الذى جعلها مقرًا صالحاً لنشأته بجوها وتركيبها وحجمها وبعدها عن الشمس والقمر، ودورتها حول الشمس، وميلها عن محورها، وسرعة دورانها إلى آخر هذه الموافقات التى تسمح بحياة البشر عليها، وهو الذى أودع من الأقوات والأرزاق ومن القوى والطاقات، ما يسمح بنشأة هذا الجنس وبنمو هذه الحياة ورقيها معاً.

والله سبحانه وتعالى جعل الأرض كلها مهداً للبشر فى كل زمان ومكان، وهى ممهدة لهم كذلك: للسير، والحرث، والزرع، والحياة، جعلها الخالق المدبر كذلك يوم أعطى كل شئ خَلْقهُ. فأعطى هذه الأرض خلقها على الهيئة التى خلقت بها صالحة للحياة التى قدرها فيها، وأعطى البشر خلقهم كذلك على الهيئة التى خلقهم بها صالحين للحياة فى هذه الأرض التى مهدها لهم وجعلها مهدهم.

قال تعالى فى سورة الحجر: ﴿ وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴾ [الحجر: ١٩-٢١].

وقال تعالى فى سورة فصلت: ﴿ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا ﴾ [فصلت: ١٠].

وقال تعالى فى سورة لقمان: ﴿ وَأَلْقَىٰ فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ۝١٠ هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ ﴾ [لقمان: ١٠-١١].

والخالق المدبر الذى جعل الأرض مهداً، شق للبشر فيها طرقاً، وأنزل من السماء ماءً، ومن ماء المطر تتكون الأنهار وتفيض. ﴿ **وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجا من نبات شتى** ﴾ أى أخرج الله بهذا الماء عالم النبات كله من حشائش وزروع، وأشجار وهو عالم متزاوج كعالم الحيوان، والإنسان، فيقوم التوالد فيه كما يقوم فى عالم الإنسان والحيوان باللقاح بين الذكر والأنثى.

فقد شاء الله الخالق المدبر أن يكون النبات أزواجاً كسائر الأحياء، وهى ظاهرة مطردة فى الأحياء كلها. والنبات فى الغالب يحمل خلايا التذكير، وخلايا التأنيث فى النبتة الواحدة، وأحياناً يكون اللقاح فى نبتة ذكر منفردة كما هو الحال فى الفصائل الحيوانية، وبذلك يتم التناسق فى نواميس الحياة، ويطرد فى كل الفصائل والأنواع، قال تعالى فى سورة الشعراء: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ۝٧ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [الشعراء: ٧-٨].

وقال تعالى فى سورة الأنعام: ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا ﴾ [الأنعام: ٩٩].

فالله سبحانه وتعالى أخرج بهذا الماء أنواع النباتات من زروع وثمار، ومن حامض وحلو، ومر، بعضها للناس، وبعضها للبهائم التى تخدم الإنسان، والتى كثير من علفها هو مما يفضل عن حاجة الإنسان مما لا يقدر الإنسان على أكله. وفى اختلاف منافع النباتات المختلفة واختلاف لونها ورائحتها وشكلها، بما يخدم مصالح الإنسان، دليل على أن هناك ذاتاً هى التى سخرت كل شئ فى هذه الأرض لصالح الإنسان.

ولا شك أن فى مشاهد الحياة المتفتحة فى جنبات الأرض ينبه القرآن الكريم إلى صفحة الكون المنظور، لنشهد بديع صنع الله فى الماء والإنبات والإثمار فى شتى أنواعها، وشتى أشكالها، وشتى أطوارها، وليلمس الوجدان ما فيها من حياة نامية، دالة على القدرة التى تبدع الحياة.

ومنظر الحدائق على الأرض، يبعث فى القلوب السرور والحيوية قال تعالى فى سورة النمل: ﴿ **وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ** ﴾ [النمل: ٦٠] فتأمل الحدائق البهيجة كفيل بإحياء القلوب. وتدبر آثار الإبداع كفيل بتمجيد الصانع الذى أبدع.

والمتأملون فيما جعل الله الأرض عليه من المهد والطرق السهلة، وما أنبت فى الأرض من النبات لا يكتفون بفتح أبصارهم وبصائرهم للنظر، والتدبر، والاستدلال فحسب، بل يعبرون عن إحساسهم بالحق.

وقد كثرت فى القرآن الكريم الآيات التى تخاطب الإنسان وتدعوه أن يوجه نظره إلى خالق هذا الكون قال تعالى فى سورة يونس: ﴿ **قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ** ﴾ [يونس: ١٠١].

والمؤمنون بالله أصحاب العقول الراجحة هم الذين تتفتح قلوبهم لآيات الله المبثوثة فى تضاعيف الأرض والسماء. وحيثما مد الإنسان بصره، وجد آيات الله تطالعه، وكلها تعلن عن نفسها فيستشعرها القلب المؤمن، قال تعالى فى سورة الذاريات: ﴿ **وفى الأرض آيات للموقنين** ﴾ أى كما يقول علماء التفسير: فيها دلائل أو وجوه دلالات تدل على وجود الخالق الذى جعلها مهداً.

قال تعالى: ﴿ **الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّى ۝٥٣ كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لأُوْلِي النُّهَى** ﴾ [طه: ٥٣-٥٤].

فأنت ترى أن الآية الكريمة ذكرت آيات تدل على الخالق المدبر، وخُتمت بقوله تعالى: ﴿ **إن فى ذلك لآيات لأولى النهى** ﴾ أى لذوى العقول. والنهى جمع

نهية. وإنما سمى العقل نهية إما لأنه ينهى عن المحظور ، أو لأن الأمور ينتهى بها إليه.

ثم بعد ذلك أخبرنا رب العزة أن هذه الأرض التى جعلها لنا مهداً، وسلك لنا فيها سبلاً، وأنزل عليها من السماء ماءً، وأنبت به أزواجاً من نبات شتى، للأكل والمرعى، هذه الأرض بالنسبة للإنسان منها المبدأ وإليها المصير.

فالإنسان مخلوق من مادة هذه الأرض، عناصر جسمه كلها من عناصرها إجمالاً ومن زرعها يأكل، ومن مائها يشرب، ومن هوائها يتنفسُ، وهو ابنها، وهى له مهد، وإليها يعود جثة تطويها الأرض، ورفاتاً يختلط بترابها، وغازاً يختلط بهوائها. ومنها يبعث إلى الحياة الأخرى، كما خلق فى النشأة الأولى.

قال تعالى: ﴿**منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى**﴾ والمراد بإخراجهم أن يؤلف أجزاءهم المتفرقة المختلطة بالتراب، ويردهم كما كانوا أحياء ويخرجهم إلى المحشر.

فأنت ترى أن فى الأرض آيات حيث جعلها الله للبشر فراشاً ومهاداً يتقلبون عليها، وسوى لهم فيها مسالك يترددون فيها كيف شاءوا، وأنبت فيها أصناف النبات، التى منها أقواتهم، وعلوفات بهائمهم، وهى أصلهم الذى منه تفرعوا، وأُمّهم التى منها ولدوا، وهى التى تضمهم إذا ماتوا.

فهل يكون ذلك إلا بالله، ومن الله.

* * *

من آيات الله

فى خلق الإنسان

قال تعالى فى سورة الروم: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ﴾ [الروم: ٢٠].

والمتأمل فى قضية خلق الإنسان كما جاء بها القرآن الكريم يجد أنها تلتقى مع العقل فى كل طور من أطواره صعوداً أو نزولاً.

ففى القرآن عشرات من الصور التى خرج بها الإنسان إلى هذا العالم، وهذه الصور وإن اختلفت مظهراً، فإنها تلتقى جميعاً فى مضمونها ومحتواها.

فالعقل فى أدنى مستوياته، يلتقى مثلاً مع قوله تعالى فى سورة الحجرات: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣].

وتلك حقيقة لا يستعلى عليها العقل فى أعلى منازله، ولا يستغنى عن الأخذ بها، فإذا ترقى العقل شيئاً كان له لقاء آخر مع قوله فى سورة النساء: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾ [النساء: ١].

ثم ما يزال العقل يلتقى مع آيات الله آية آية، فيجد فى كل آية منها لوناً جديداً تزداد به الصورة وضوحاً وعمقاً. . ومن هذه الآيات قوله تعالى فى سورة المرسلات. ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾ فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾ [المرسلات ٢٠: ٢١]. وقوله تعالى فى سورة نوح: ﴿وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الأَرْضِ نَبَاتًا﴾ [نوح: ١٧]. وقوله تعالى فى سورة المؤمنون: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن سُلالَةٍ مِّن طِينٍ﴾ [المؤمنون: ١٢]. وقوله تعالى فى سورة الرحمن: ﴿خَلَقَ الإِنسَانَ مِن

صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ﴾ [الرحمن: ١٤]. وقوله تعالى فى سورة الحجر: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ [الحجر: ٢٦].

فهذه الآيات وكثير غيرها مما جاء فى خلق الإنسان تضع العقل أمام قضايا ومقررات، كلها تتحدث عن خلق الإنسان وبعضها واضح جلى، يعرف بأدنى نظر، وبعضها دقيق خفى لا ينال إلا بنظر دقيق، وإدراك سليم، مع قدر كبير من العلم والمعرفة، مع هذا فإن التقاء هذه الآيات فى أى عقل مؤمن لا يحدث صداماً بينها، ولا يدعو إلى انفصال فى وحدتها، وذلك بحمل الخفى عليه منها على الجلى، والمتشابه عنده على المحكم. ثم يبقى مع هذا للعقل على امتداد الزمن فكانه من الآيات الخفية، ينظر فى وجهها، ويدور باحثاً عن أسرارها.

وفى كل يوم يجد العقل من هذه الآيات جديداً من العلم، ومزيداً من المعرفة، وكثيراً من الأسرار. وإذا التراب، والطين، والصلصال، والحمأ المسنون، والماء، والنبات، وكل هذه المواد التى تحدث عنها القرآن فى خلق آدم، هى العناصر التى شكلت هذا المخلوق العجيب، والتى أقام منها الخالق العظيم، هذا البناء فى أحسن تقويم..

روى عن أبى موسى الأشعرى أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض. فجاء بنو آدم على قدر الأرض؛ جاء منهم الأبيض، والأحمر، والأسود، وبين ذلك، والخبيث، والطيب، والسهل، والحزن، وبين ذلك».

والمراد بالخلق من تراب: إنتهاء خلقة الإنسان إلى الأبيض. فإن مراتب تَكُّون الإنسان من مضغة، أو علقة، أو نطفة، أو غيرها مركبات أرضية، تنتهى إلى العناصر الأرضية.

قال تعالى فى سورة المؤمنون: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن سُلالَةٍ مِّن طِينٍ (١٢) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ (١٣) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٢-١٤].

وإذا كان الطين هو الأصل البعيد للإنسان فإن الله سبحانه وتعالى يذكر هذا الأصل، ويعقبه مباشرة بصورة البشر، منتشرين، متحركين، للمقابلة فى المشهد والمعنى، بين التراب الميت الساكن، والبشر الحى المتحرك.

﴿ **ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون** ﴾ وإذا فى قوله تعالى: ﴿ **إذا أنتم بشر تنتشرون** ﴾ فجائية أى يفاجئكم أنكم أناسى تنتشرون فى الأرض، أى يخلقكم من تركيبات أرضية، المترقب منها كينونة أرضية ميتة أخرى مثلها، لكن يفاجئكم دَفْعَةً أنه يصيركم بشراً ذوى حياة وشعور عقلى تنتشرون فى الأرض، فى سبيل تدبير معنى الحياة.

قال تعالى فى سورة فاطر: ﴿ **وَاللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلا تَضَعُ إِلاَّ بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلاَّ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ** ﴾ [فاطر: ١١].

والإسلام الحنيف يطلب من الإنسان أن يمعن النظر فى خلقه هو، ويتفكر فيما حوله. قال تعالى فى سورة الطارق: ﴿ **فَلْيَنظُرِ الإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ** ﴾ [الطارق: ٥]. ويخبر القرآن أن الله خلقه من ماء مدفوق: ﴿ **خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ** ۝٦ **يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ** ۝٧ **إِنَّهُ عَلَىٰ رَجْعِهِ لَقَادِرٌ** ﴾ [الطارق: ٦-٨].

ولما جعله الله علقاً ثم خلقاً، فيه روح وقوة، جعل منه الزوجين، وجعل بينهما مودة ورحمة. وأنجب منهما البنين والبنات. يقول رب العزة فى سورة القيامة: ﴿ **أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ** ۝٣٧ **ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ** ۝٣٨ **فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنثَىٰ** ﴾ [القيامة: ٣٦-٣٩].

فالإنسان العاقل هو الذى يفكر فى كل هذا، ومن فكر عرف أنه إنما خلق ولينت مفاصله للعبادة.

وآيات الله واضحة فى خلق الإنسان، من نطفة، وعلقة، ومضغة، وعظم، ولحم، وروح. وحسب الناس القلوب، وما ركز فيها من العقول، وما خصت به من أنواع المعانى. وحسب الناس كذلك الألسن، والنطق، ومخارج الحروف،

والأبصار، والأطراف، وسائر الجوارح، وتأتيها لما خلقت له، وما سُوى فى الأعضاء من المفاصل.

فإذا هدى الفكر إلى كل هذا فى مبدأ خلق الإنسان، سهل أن نصدق بما جاء به الشرع، وهو البعث فى اليوم الآخر، لأن خلق الإنسان من أجزاء منتشرة متفرقة فى الكون. فالماء متولد من الأطعمة التى يتناولها الإنسان فجمعها الله، ثم جمع الأبوين، ثم جمع ماءيهما فى مكان واحد، ثم خلق منه الولد.

وليس فى إعادته مثل ذلك فهو أهون. فالذى قَدِر على خلق الإنسان ابتداءً من هذه المادة، قادر على أن يرده حياً بعد أن يموت.

والمتأمل فى الآيات التى تتحدث عن الإنسان، يجد أن الإسلام الحنيف يدعونا إلى إعمال الفكر فى هدوء، وإمعان التأمل فى بصيرة، سيما فى القضايا الجوهرية التى تمس حياة الإنسان ووجوده، ومصيره..

وإذا نظرت تريد مُعْتَبَراً   فانظر إليك ففيك معتبر
أنت الذى تمسى وتصبح فى   الدنيا وكل أموره عبر

* * *

من آيات الله

فى الأسرة

قال الله تعالى فى سورة الروم: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الروم: ٢١]

فهذه الآية تضمنت آيات، وكلها تشير إلى فيض الحكمة الإلهية. فمن آياته الدالة على قدرته سبحانه وتعالى، أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً أى من جنسكم فى البشرية والإنسانية والأزواج جمع زوج. والمراد به فى الآية «المرأة» بقرينة عودة الضمير إليها مؤنثاً فى قوله تعالى: ﴿لتسكنوا إليها﴾.

ومعنى هذا: أن المرأة من الرجل، وأن الرجل من المرأة، وأنهما من جنس واحد، وطبيعة واحدة هى الطبيعة الإنسانية. وأنه سبحانه وتعالى خلق من هذا الجنس زوج المرأة، كما خلق منه زوج الرجل، ليسكن إليها وتسكن إليه، ما دامت المرأة والرجل من معدن واحد، فخصائصهما ومابه إنسانيتهما واحدة، وليس أحدهما أدخل فى باب الإنسانية من الآخر، ولن يكون شئ من الذكورة أو الأنوثة شافعاً أو رافعاً لأحدهما، ومانعاً أو خافضاً للآخر فى مجالات العمل والتكاليف، وما يتبعها من ثواب وعقاب. قال تعالى: ﴿**من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم بأحسن ما كانوا يعملون**﴾.

والسكون فى قوله تعالى: ﴿لتسكنوا إليها﴾ من أروع الأساليب البلاغية التى تفى بالمقصود فى عبارة موجزة، والسكون أعم من أن يكون قاصراً على السكون العاطفى، فهو يشمل سكون النفس وارتياحها واطمئنانها، وسكون الجسد بالركون إلى شريك الحياة، وسكون الروح للعبادة، والسمو فى ملكوت الله، وسكون الاقتصاد بالتعاون المثمر فى بناء الأسرة.

والزوج والزوجة فى حاجة إلى الرباط النفسى حاجتهما إلى رباط الجسد، وفى حاجة إلى السكينة الروحية حيث يجد كلا منهما فى الآخر الراعى والرفيق خاصة إذا تقدمت بهما السن.

ولا يخفى أن الزواج بما فيه من سكينة النفس، وارتياح القلب، معين على العفة والحصانة الخلقية. قال رسول الله ﷺ: «ما استفاد المؤمن بعد تقوى الله عز وجل خيراً له من زوجة صالحة، إن أمرها أطاعته، وإن نظر إليها سرته، وإن أقسم عليها أبرته، وإن غاب عنها نصحته فى نفسها وماله».

فالسكون النفسى، والسمو الروحى، والارتياح القلبى، والاطمئنان النظرى، والإحساس بالأمن والأمان، والشعور بالسعادة، والتعاون المثمر، وتبادل المشورة والاستقرار، كل ذلك تضمه عبارة ﴿**لتسكنوا إليها**﴾ وعودة الضمير إلى مؤنث فى «إليها». يشعر بحاجة الرجل إلى هذا السكون، ويوحى بأهمية الزوجية فى الحياة.

ومجئ عبارة ﴿**لتسكنوا**﴾ مرتبطة بواو الجماعة الدالة على الذكور، يشير إلى دور الرجال فى السعى إلى هذا السكون، الذى هو من لوازم الحياة.

روى الإمام أحمد والترمذى عن ثوبان أن النبى ﷺ قال: «ليتخذن أحدكم قلباً شاكراً ولساناً ذاكراً وزوجة مؤمنة تعينه على آخرته».

والمودة تشير إليها الآية بقوله تعالى: ﴿**وجعل بينكم مودة**﴾ والمودة: المحبة، وهى أمر يعم الزوجين وأسرتيهما. وتبدو هذه الظاهرة فى أن الزوج لا يتعامل فقط مع زوجته، وإنما مع أسرتها كذلك، فتنشأ بينه وبينها صلات وعلاقات ودية، أو هكذا ينبغى أن يكون.

ولعل المتأمل يدرك أن المودة تتحقق بين الزوج وزوجته وأسرتيهما فى حالة البناء، وتعمير البيت. لأن كلمة «بينكم» تفيد الاقتران، والاقتران مدعاة للحب الصادق والمودة الصافية، كما أن الفعل الماضى «جعل» فى ﴿**وجعل بينكم مودة**﴾ يفيد أن المودة تنشأ من التعامل القائم بين الزوجين، وهذا دافع لأن يحرص كلا من الزوجين على ما هو أحسن وأفضل.

قال تعالى: ﴿**وجعل بينكم مودة ورحمة**﴾ والرحمة من الرحم. والرحمة: الرقة والتعاطف، والرقة والتعاطف ينشئان بعد المودة والمحبة، ولهذا كان قوله تعالى: ﴿**وجعل بينكم مودة ورحمة**﴾ آية من آيات الله التى توقظ أحاسيس من كان له قلب. والرحمة التى جعلها الله تنشأ بالزواج تتم فى بيت الزوجية، وتنمو، وتزداد بالثمرات التى أينعت من بنين وبنات.

والرحمة التى تنشأ بالتراحم والتعاطف والحب، تستكن فى نفوس الوالدين نحو الأولاد، وتمتد إلى أقارب الأبناء من جهة الزوج ومن جهة الزوجة، ثم أقارب الأقارب وهكذا إلى أن تغدو هذه العواطف أساس التعامل فى المجتمع الإنسانى.

وتبدو أصول التربية واضحة فى هذه الآية. فغراس الرحمة الذى نبت فى ظلال زوجين، وترعرع فى بيت على المودة، هذا الغرس الطاهر: سلوك تربوى يُحَسُّ، ويُبْصَرُ، ويُسْمَعُ.

وعلى هذا فالبيت عامل بيئى رئيسى، يتلقى الطفل فيه أحسن المشاعر، وأنبل العواطف.

والرحمة بين الزوجين مدرسة تربوية متكاملة لصقل الإنسان وتربيته وتحليته بالفضائل، ومكارم الأخلاق، والباسه لباس الأدب، لينشأ وقد عود على الرحمة والرفق والحنان.

ومن لم يتدرب فى البيت على هذا التعامل فليس أهلاً لأن يكون إنساناً ولقد رأى الأقرع بن حابس أن النبى ﷺ يقبل الحسن بن على فقال: إن لى عشرة من الأولاد ما قبلت واحداً منهم. فقال عليه الصلاة والسلام «إن من لا يرحم لا يُرحم».

ويروى أن أحد الولاة دخل على أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه فرآه يقبل طفلاً فكأنما رأى أمراً غريباً على بصره، ثقيلاً على نفسه لأنه لا يمارسه، فأظهر دهشته، واستغرابه، فلم يلبس عمر أن عزله عن الولاية.

إن فى ذلك لآيات عظيمة الشأن بديعة البيان، واضحة الدلالة، على قدرته سبحانه وتعالى لقوم يتفكرون، لأنهم الذين يقتدرون على الاستدلال. ولأنهم إذا تفكروا فى الأصول التكوينية التى خلق الله الإنسان عليها ﴿**يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى**﴾ وعرفوا أن الذكورة والأنوثة داعيتين إلى الاجتماع المنزلى، والمودة والرحمة، باعثتين إلى الاجتماع المدنى. عثروا من عجائب الآيات الإلهية فى تدبير أمر هذا النوع ما يبهر به عقولهم، وتدهش به أحلامهم.

* * *

من آيات الله

خلق السموات والأرض

قال تعالى فى سورة الروم: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ﴾ [الروم: ٢٢].

هذه آية من آيات القرآن الكريم، تذكر أن من دلائل وجود الله ، وآيات قدرته، خلقه السموات المزدانة بالكواكب، والنجوم الثوابت.

وخلقه السماء والأرض لم يكن باطلاً، ولم يقم على باطل، إنما كان حقاً، وقام على الحق.

ومن دلائل قدرته سبحانه وتعالى خلقه الأرض، ذات الجبال، والوديان، والبحار، والقفار، والحيوان ، والأشجار.

وحيثما مد الإنسان بصره وجد آيات الله تُطالعه فى هذا الكون الرحيب: السموات بأجرامها وأفلاكها، والأرض بما أودعها الله من خصائص فى تركيبها، ومن صلاح لنشوء الحياة فوقها . . كلها آيات تعلن عن نفسها، فيستشعرها القلب المؤمن، فتوقظ قلبه، وتؤكد الصلة بينه وبين مشاهد الكون. قال تعالى فى سورة العنكبوت: ﴿خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٤٤]. وقال تعالى فى سورة الجاثية: ﴿إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الجاثية: ٣].

فخلق السموات والأرض آية عظيمة، مشهود بما فيها من تصاريف الأجرام السماوية والأرضية وما هو محل العبرة من أحوالهما المتقاربة المتلازمة، كالليل والنهار.

وإن فى خلق السموات والأرض معناه: إنشاء هذا الخلق الهائل الضخم العظيم الدقيق الذى لا نعرف عنه إلا القليل.

هذا الحشد الذى لا يحصى من الأفلاك، والمدارات، والنجوم، والكواكب، والسدم والمجرات، لا تزيد الأرض الصغيرة عن أن تكون ذرة تائهة بينها تكاد أن تكون لا وزن لها، ولا ظل.

ومع الضخامة الهائلة، ذلك التناسق العجيب بين الأفلاك، والمدارات، والدورات، والحركات، وما بينها من مسافات، وأبعاد، تحفظها من التصادم، والخلل، والتخلف، والاضطراب، وتجعل كل شئ فى أمرها بمقدار. ذلك كله من ناحية الحجم العام والنظام.

فأما أسرار هذه الخلائق الهائلة وطبائعها، وما يستكن فيها، وما يظهر عليها، والنواميس الكبرى التى تحفظها، وتحكمها. فهذا كله أعظم من أن يلم به إنسان. وما عرف عنه إلا أقل القليل. قال تعالى فى سورة ص: ﴿**وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً**﴾ [ص: ٢٧].

وقال تعالى فى سورة الدخان: ﴿**وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاعِبِينَ**﴾ [الدخان: ٣٨].

لقد عبر القرآن الكريم فى كثير من الآيات، عن حكمة الله بقيام السموات والأرض، ذلك أن تدبر ما فى خلق السموات والأرض من دقة، وحكمة، يوحى بأن هذا الوجود قائم على الحق.

والمؤمن المفكر فى ملكوت الله، وما خلق من سموات وأرض، وما بث فى الأرض من كل خَلْق، بين بديع ناطق، وشنيع صامت، وأليف، ووحشى، ونافع وضار، ومستخدِم، ومُستخدَم، وسهل ووعر، لابد أن يدرك بالفطرة السليمة، والعقل الواعى: أن هذا من صُنع من لا يُصنع، وخلق من لا يُخلَقُ.

ومما يلاحظ: إن فى الجمع بين خلق السموات والأرض واختلاف الألسنة والألوان، فى قوله تعالى: ﴿**ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم**

وألوانكم﴾ إشارة إلى هذه الظاهرة التى لا يكاد يلتفت إليها الناس، من اختلاف ألسنتهم وألوانهم إنها وهى التى لا يكاد يلتفت إليها أحد، لا تقل عن خلق السموات والأرض وما فيهما من أجرام، وعوالم، فى الدلالة على قدرة الخالق، وجلاله، وعظمته، وعلمه، وحكمته.

إن كل إنسان من الناس هو عالم قائم بذاته، فى ظاهره وباطنه. ففى كل إنسان آية متفردة من آيات الخلق، وقدرة الخالق. فعلى حين يبدو الناس وكأنهم ثمار شجرة واحدة، إذ هم ثمار مختلفة الطعوم، والألوان، والأشكال، كل ثمرة لها طعمها ولونها وريحها. .

إن العين لتأخذ الناس جميعاً، وكأنهم كائن واحد، فإذا عاد النظر إليهم فرداً فرداً كان كل واحد منهم كائناً قائماً بذاته، بما له من سمات وخصائص. فلكل إنسان نبرات صوته، ومخارج كلماته، وطبقات أنغامه التى تميزه عن غيره، فلا تختلط نبرة بنبرة، ولا يشتبه مخرج بمخرج، ولا تتماثل طبقة مع طبقة. وإن بدا فى ظاهر الأمر أن هناك تماثلاً وتشابهاً بين صوت وصوت، ونغم ونغم، فإن الحقيقة غير هذا، حيث توجد فروق دقيقة، وخطوط هندسية، غاية فى الدقة، تفصل بين صوت وصوت، وتحجز بين نغم ونغم، وكذلك الشأن فى الألوان، والأشكال، والصور. **﴿ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم﴾** والمراد باختلاف الألسن: اختلاف اللغات من العربية، والفارسية، والأوردية وغيرها. وباختلاف الألوان: اختلاف الأمم فى ألوانهم. كالبياض والسواد، والصفرة والحمرة اختلافا به أمكن التمييز بين الأشخاص فى الأصوات والألوان. وهذا مما لاغنى عنه فى منازع الحياة، ومختلف أغراضها.

فكثيراً ما تَميَّز الأشخاص بالأصوات، وبذا نعرف الصديق من العدو، فنتخذ ما يلزم من العدة لكل منهما، كما نميز الأشخاص بلغاتها، فنعرف من أى الأجناس هى. . فالآية الكريمة: **﴿ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم﴾**.

ربطت بين اختلاف الألسنة والألوان بخلق السموات والأرض. وهذا يشير إلى العلاقة الوثيقة بين اختلاف الألسن والألوان بخلق السموات والأرض. فاختلاف الأجواء على سطح الأرض، واختلاف البيئات، ذلك الاختلاف الناشئ من طبيعة وضع الأرض الفلكى ذو علاقة باختلاف الألسنة والألوان مع اتحاد الأصل والنشأة فى بنى الإنسان. إن يد القدرة القادرة المحكمة قد أقامت الألوان والأشكال والصور، كل منها فى موضعه وجعلت بينها حاجزاً، فلا يبغى بعضها على بعض.

وهذا فى ظاهر الإنسان أما فى باطنه فالأمر أعجب وأغرب، فمنازع التفكير، ومناحى العواطف، ومشارب المشاعر، وخلجات الضمير، ووسوسات الأهواء، إنها أمواج متدافعة، على صدر محيط لا حدود له. ومع هذا فلا تختلط موجة بموجة، ولا يضيع تيار فى عباب تيار.

﴿**إن فى ذلك لآيات للعالمين**﴾ أى أن فيما ذكر لدلائل لائحة لأولى العلم الذين يفكرون فيما خلق الله، فيعلمون أن الله لم يخلق شيئاً عبثاً، بل خلق كل شئ لحكمة بالغة، فيها عبرة لمن تذكر.

فعين العلم هى التى تكشف أسرار هذه الآيات، وتطلع على ما أشارت إليه من دلائل قدرته تعالى لذوى العقول، وأولى العلم. قال تعالى فى سورة العنكبوت: ﴿ **وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ الْعَالِمُونَ** ﴾ [العنكبوت: ٤٣].

فما أمرنا أن نعقل ونتعلم ونستفيد مما خلق الله. فالدرجة الأولى لصحائف العالم التى تشهد على صانع حكيم هى أصل خلقه السموات والأرض، ثم سلسلة تزيين السموات بنجومها، مع عمارة الأرض بأحيائها.

نعم إن فى هذا لآيات باهرات، آيات للمبصرين بعقولهم وأفهامهم. فهذه القبة الزرقاء من رفعها ؟ وهذا البساط من مهده ؟ وهذه الرياح التى تكون شمالاً ثم تتغير فجأة إلى جنوب، فشرق وغرب تزجى سحاباً وتزبده، ثم ينهمر ماء فراتاً، من مدبر هذا كله ؟ إنه الله العزيز الحميد. إنه من تدبير من لا شريك له.

* * *

من آيات الله

فى النوم

قال تعالى فى سورة الروم: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ [الروم: ٢٣].

فمن علامات قدرته سبحانه وتعالى نومكم بالليل واستقراركم فيه، فقد ألبس الإنسان لباسَ النوم، ليجد فيه الجسم سكنه وراحته مما يعالج فى يقظته من أعمال، وما يحمل من أعباء. فكان النوم واليقظة خِلْقَةً يدوران فى فلك الإنسان. وبهذا التوارد للإنسان على موارد النوم واليقظة يعرف الإنسان نعمة الله عليه، وإحسانه إليه. ويجد للنوم طعمه الهنى فى كيانه. كما يجد لليقظة مساغها العذب فى كل جارحة من جوارحه وفى قوله تعالى: ﴿**ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغاؤكم من فضله**﴾ دلائل وآيات ففى تقديم النوم على اليقظة التى يدل عليها قوله تعالى: ﴿**وابتغاؤكم من فضله**﴾ فى هذا إلفات إلى نعمة النوم التى قل أن يلتفت إليها كثير من الناس. إذ كان فى النوم عزل للإنسان عن الحياة، وقطع للصلة بينه وبين ذاته، حتى لكأنه قد فقد وجوده.

ومن هنا كانت نظرة كثير من الناس إلى النوم على أنه عارض دخيل على الإنسان أشبه بالآفات التى تعرض للجسد. وهذا فهم خاطئ لهذه النعمة العظيمة التى تضفيها يد الرحمة الإلهية على الإنسان.

وندع النظر إلى النوم كظاهرة جسدية، وإلى وظيفته العضويه، فى كيان الجسد الإنسانى، وننظر إلى ما يقع للإنسان فى رحلة النوم، وما يصادفه على طريقه من رؤى وأحلام، حيث تنطلق قوى الإنسان الخفية، وتسبح فى عوالمها، وتحقق قليلاً أو كثيراً من مطالبها التى أمسكتها عنها يقظة الجسد، وقيدتها دونها جوارحه.

ففى رحلة النوم، وفيما بين اليقظة والنوم يسبح الإنسان بعقله وروحه، فيما وراء هذا العالم المادى، حيث لا قيود ولا سدود، وحيث يحقق الإنسان فى هذا العالم ما عجز عن تحقيقه فى عالمه المادى، فيجد فى هذا ما يجد الجوعان بعد الشبع، والظمآن بعد الرى، فكم من محروم طعم فى نومه من كل طيب تشتهيه نفسه وتقصر عنه يده، وكم من مظلوم اكتوى بنار الظلم من يد ظالمه، وجد فى رؤى نومه ما يبشره، وكم من محب باعد الزمن بينه وبين حبيبه، وانقطع بينهما حبل اللقاء بغربة نائية فى عالم الأحياء أو عالم الموتى، وإذا هما فى الكرى على لقاء.

وكم من عالم وقف به علمه أمام معضلة لم يجد لها حلاً، حتى دب اليأس فى صدره ، وغربت شمس الرجاء من أفقه، وإذا هواتف الرؤى تناديه، وتبوح له فى نومه، بما ضنت عليه فى يقظته . . وكم . . وكم . . وكم . . ولذلك نجد الرسول ﷺ يشير إلى الرؤى الصادقة والمبشرات على أنها جزء من النبوة. ففى صحيح مسلم يذكر رسول الله ﷺ فى أكثر من حديث أن الرؤيا جزء من خمس وأربعين أو خمس وخمسين من النبوة.

إننا فى عالم النوم لنجنى من الثمرات العقلية والروحية والنفسية، ما لا نحصل عليه فى يقظتنا بمدركاتنا وحواسنا. . ذلك أن النوم إذا قطع صلتنا بعالم الحس وصلنا بعالم الروح، وكما تأخذ أجسادنا حظها من طعام وشراب من عالمها المادى، فإن أرواحنا ونفوسنا وعقولنا تتزود فى رحلة النوم من عالم الروح بكل ما تستطيع الوصول إليه منه.

فالنوم ليس إلا حبساً للجسد، وإطلاقاً للروح. وهو بهذا إنما يعطى الجانب الروحى من الإنسان حظه من الإنطلاق من كثافة المادة وضغوطها وظلامها. وماذا يبقى للإنسان أو من الإنسان إذا انطفأ هذا المصباح الإلهى المشتعل فى كيانه. . إنه لا إنسان بغير روح، وأنه لا وجود لإنسانية فقدت روحها، وإن لم تفقد حياتها.

وإذا كان النوم نعمة جليلة فإن الله سبحانه وتعالى قد جعل الليل الذى هو الظرف الطبيعى للنوم نعمة جليلة أيضاً. قال تعالى فى سورة القصص: ﴿**قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ**﴾ [القصص: ٧١] فالليل ستار يغشى الكائنات الحية ومنها الإنسان فيسلمها ذلك إلى السكن ثم النوم. قال ابن كثير: روى الطبرانى عن زيد بن ثابت رضى الله عنه قال: أصابنى أرق من الليل فشكوت ذلك إلى رسول الله ﷺ فقال: «قل اللهم غارت النجوم، وهدأت العيون وأنت حى قيوم. يا حى يا قيوم أنم عينى، وأهدئ ليلى» فقلتها فذهب عنى.

إن لليل سلطاناً قاهراً كسلطان النهار على الأحياء، هذا للنوم وذاك لليقظة. وكم ناجى العباد ربهم بالليل، وقطعوا أناءه حمداً وتسبيحاً، وركوعاً وسجوداً.

إن الليل وإن لم يستول على الإنسان سلطان النوم فيه، فإن فى ظلامه فرصة تحجز الحواس عن الإنطلاق وتمسكها عن العمل، وعندئذ تصحو مشاعر الإنسان وتستيقظ روحه، ومن هنا يكون مهيئاً للاتصال بالعالم العلوى، والوقوف على موارية، والرى من مشاربه.

ولأن الليل هو الظرف الطبيعى للنوم، فقد أقسم الله سبحانه وتعالى به، وسمى سورة من القرآن الكريم به، تنويهاً بقدره، فقال تعالى فى سورة الليل: ﴿**وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ (١) وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ**﴾[الليل: ١-٢]. **وقال تعالى فى سورة الشمس**: ﴿**وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا (١) وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا (٢) وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا (٣) وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا**﴾ [الشمس: ١-٤].

وقال تعالى فى سورة الانشقاق: ﴿**وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ**﴾ وفى عطف النهار على الليل: ﴿**ومن آياته منامكم بالليل والنهار**﴾ تقرير لحقيقة واقعة، وهى أن الليل وإن كان هو الظرف الطبيعى للنوم، فإن ذلك لا يمنع أن يكون النهار ظرفاً للنوم أيضاً حيث ينام الناس بالليل، وينامون كذلك بالنهار، وإن كان النوم بالليل هو الأصل، والنوم بالنهار فرعاً، ولهذا قدم الليل على النهار فى هذا المقام.

ومن جهة أخرى نجد فى قوله تعالى: ﴿ **وابتغاؤكم من فضله** ﴾ وإن جاء مجاوراً للنهار فإنه معطوف على قوله تعالى: ﴿ **منامكم بالليل** ﴾ وهذا يعنى أن النهار وأن كان الظرف الطبيعى للسعى والعمل، فإن ذلك لا يمنع من أن يكون الليل ظرفاً للسعى والعمل - كما هو واقع الحياة - فالناس يعملون بالنهار ويعملون بالليل، كما ينامون بالليل، وينامون بالنهار.

وفى قوله تعالى: ﴿ **إن فى ذلك لآيات لقوم يسمعون** ﴾ إشارة إلى أن فى فعل الله ذلك، لعبراً وأدلة، لمن يسمعون مواعظه فيتعظون بها، ويفهمون حججه عليهم.

وفى استدعاء السمع دون حواس الإنسان وملكاته الآخرى، إشارة إلى أن السمع الذى يحقق إدراكاً ويعطى فهماً ثم يعطى هذا الفهم وذلك الإدراك ثمرة، هو السمع الذى يُخلى له الإنسان حواسه كلها، ويعطيه وجوده كله، على ما يكون عليه الإنسان فى الليل، وقد اشتمل عليه، وأمسك كل حواسه، فلم يبق للإنسان إلا سمعه المرهف الموجه إلى العالم الخارجى، وما يجئ منه.

* * *

من آيات الله

فى البرق

قال تعالى فى سورة الروم: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الروم: ٢٤].

وقال تعالى فى سورة البقرة: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ﴾ [البقرة:١٩] وقال تعالى فى سورة الرعد: ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ ﴿١٢﴾ وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَاءُ﴾ [الرعد: ١٢-١٣].

فالله سبحانه وتعالى جعل من آياته العجيبة الدالة على قدرته البرق، والبرق يظهر سلطانه على أتمه حين يلمح بالليل.

وظاهرة البرق: ظاهرة ناشئة من النظام الكونى، ويعللها بعض العلماء: بأنها تنشأ من انطلاق شرارة كهربائية بين سحابتين محملتين بالكهرباء، أو بين سحابة وجسم أرضى كقمة جبل مثلاً، ينشأ عنها تفريغ فى الهواء، يتمثل فى الرعد الذى يعقب البرق.

وفى الغالب يصاحب هذا وذلك تساقط المطر، نتيجة لذلك التصادم، وأياً ما كان السبب فالبرق ظاهرة ناشئة عن نظام هذا الكون، كما خلقه البارئ وقدره تقديراً.

والقرآن الكريم حسب طبيعته يتخذ من هذه الظاهرة أداةً لوصل القلب البشرى بالوجود، وخالق الوجود، ومن ثم يقرر فى قوله تعالى: ﴿**ومن آياته يريكم البرق**﴾ أن آية من آيات الله أن يريهم البرق.

ورؤية البرق إشارة دالة على الرحمة المرسلة من عند الله، على يد هذا السحاب الذى ينطلق البرق من خلاله.

فإذا لمع البرق توقع الناس الغيث، واختلفت توقعاتهم له بين يأس ورجاء، وخوف وطمع. وذلك أن البرق وإن كان رسولاً من رسل الغيث، إلا أنه قد يجئ بالغيث وقد لا يجئ.

وهناك برق يسمى برق الُخَّلب، وهو الذى يبرق ولا يصحبه مطر، ومن هنا كان قوله تعالى: ﴿**ومن آياته يريكم البرق خوفا وطمعا**﴾ إشارة إلى أن لمعان البرق وإن طلع على الناس بما يبشر بالغيث، فإنه يضع المشاعر المترقبة للمطر، المتلهفة عليه، فى موضع متأزم، بين الخوف والرجاء.

والخوف والرجاء شعوران فطريان يتعاوران النفس البشرية أمام تلك الظاهرة، شعور الخوف من الصواعف، التى تحرق الناس والأشياء أحياناً عندما يبرق البرق، أو الخوف الغامض من رؤية البرق، وما يوقعه فى الحس من الشعور بالقوة المصرفة لهيكل هذا الكون الهائل، وشعور الطمع فى الخير، من وراء المطر، الذى يصاحب البرق فى معظم الأحوال.

ويذكر علماء التفسير: أن الخوف ليغلب على الرجاء، وخاصة إذا كانت الحاجة إلى المطر شديدة والطلب له ملحاً، وهذه هو بعض السر فى تقديم الخوف على الطمع.

إذ كانت الآية الكريمة متجهة أولاً إلى من يقيمون حياتهم على ماء المطر، مثل سكان الصحارى، ونحوها، فهؤلاء إذا تأخر نزول المطر أياماً، وأمسكت السماء رحمتها قليلاً عنهم فزعوا، واضطربوا، وتعلقت أنظارهم بالسماء، يرقبون السحب ويرصدون مسيرتها.

فإذا لمع البرق بدا لهم منه الوجه الضاحك المبشر بالخير ففرحوا واستبشروا، ولكن سرعان ما يطلع عليهم شعور أسود كالح، يقطع عليهم هذه الفرصة كأنه يقول لهم: وما يدريكم أن وراء هذا البرق المطر ؟

ألا يجوز أن يكون برقاً خُلَّباً. وهنا يأخذ الخوف مكان الصدارة، على مشاعرهم شأن الحريص على الشئ المتلهف إليه، يغلب عليه الخوف على فقده أكثر من الطمأنينة إلى بقائه. وبعد أن كان من آيات الله ظاهرة البرق ﴿ **ومن آياته يريكم البرق خوفا وطمعا** ﴾ عقّب بقوله ﴿ **وينزل من السماء ماء فيحي به الأرض بعد موتها** ﴾ والتعبير بالحياة والموت بالقياس إلى الأرض تعبير يخيل أن الأرض كائن حى، يحيا ويموت.

وإنها لكذلك فى حقيقتها التى يصورها القرآن الكريم، فهذا الكون خليقة حية متعاطفة متجاوبة، مطيعة لربها، خاضعة، خاشعة، ملبية لأمره، مسبحة، عابدة. والإنسان الذى يدب على هذا الكوكب الأرضى واحد من خلائق الله هذه، يسير معها فى كوكب واحد، متجه إلى الله رب العالمين.

قال تعالى فى سورة البقرة: ﴿ **إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا** ﴾ [البقرة: ١٦٤].

وقال تعالى فى سورة الحج: ﴿ **وَتَرَى الأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ** ﴾ [الحج: ٥].

وقال تعالى فى سورة الفرقان: ﴿ **وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾ لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا** ﴾ [الفرقان: ٤٨, ٤٩].

وقال تعالى فى سورة فاطر: ﴿ **أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا** ﴾ [فاطر: ٢٧].

ففى إنزال الماء من السماء لفت إلى مظاهر خلق الله ونواميس كونه. فالله ينزل من السماء ماءً فيخرج به نباتاً مختلف الألوان والأنواع والأشكال.

ففى مشاهد الحياة المتفتحة فى جنبات الأرض ينبهنا القرآن الكريم إلى صفحة الكون المنظور، لنشهد بديع صنع الله فى الماء، والإنزال والإنبات والإثمار.

فأنت أيها القارئ الكريم، ترى أن الآية : ﴿ **ومن آياته يريكم البرق خوفا وطمعا وينزل من السماء ماء فيحى به الأرض بعد موتها** ﴾ أشارت إلى آيات كثيرة من شأنها أن توقظ فى الإنسان أحاسيس الشعور بقدرة الخالق سبحانه وتعالى، وتنبه الإنسان كذلك على جليل نعم الله التى أنعم الله عز وجل بها على الإنسان وقد ختمت الآية بقوله تعالى : ﴿ **إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون** ﴾ .

يعقلون دلائل قدرة الله . . . ويعقلون دلائل نعم الله .

ويعقلون فهم القرآن الكريم فينتفعون، ويشكرون، ويحمدون .

* * *

من آيات الله

قيام السماء والأرض

قال تعالى فى سورة الروم: ﴿ومنْ آيَاته أَن تَقُومَ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الأَرْضِ إِذَا أَنتُمْ تَخْرُجُونَ﴾ [الروم: ٢٥].

لا يخفى على عاقل ومفكر معرفة أن قيام السماء والأرض منتظمة سليمة، مقدرة الحركات لا يكون إلا بقدرة من الله وتدبير. . وما من مخلوق يملك أن يدعى أنه هو أو سواه يفعل هذا، وما من عاقل يملك أن يقول: إن هذا كله يقع بدون تدبير.

والقيام فى قوله تعالى: ﴿أن تقوم السماء والأرض بأمره﴾ مقابل القعود. ولما كان القيام أعدل حالات الإنسان، حيث يقوى به على عامة أعماله، استعير لثبوت الشئ واستقراره على أعدل حالاته، كما يستعار القيام لتدبير الأمر. قال تعالى فى سورةا لرعد: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [الرعد: ٣٣]. ويقول ابن كثير فى قوله تعالى: ﴿ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره﴾ كقوله تعالى فى سورة الحج: ﴿ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه﴾. وقوله تعالى فى سورة فاطر: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ أَن تَزُولا﴾ [فاطر: ٤١].

وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه إذا اجتهد فى اليمين قال: «والذى تقوم السماء والأرض بأمره» أى هى قائمة ثابتة بأمره لها، وتسخيره إياها.

وقيام السماء والأرض بأمر الله هو حفظ نظامهما، والإمساك بهما. على هذا النظام الذى أوجدهما الله سبحانه وتعالى عليه.

وأمر الله هو سلطانه، وقدرته. وهذا يعنى: إنه إذا ساغ لتفكير إنسان أن يضيف هذا الوجود فى أرضه وسمائه إلى غير الله سبحانه كما يقول بذلك

الملحدون من الطبيعيين، الذين ينسبون الموجودات إلى الطبيعة. ويقولون. إن الأشياء وجدت هكذا بطبيعتها. . نقول إذا ساغ لتفكير إنسان أن يقول مثل هذا القول. فكيف يسوغ له أن يقول: إن هذا التجاوب بين الموجودات، وهذا النظام الذى يمسك بها، ويؤلف منها نسيجاً متلاحماً هو من عمل الطبيعة ذاتها.

إن هذا يعنى: أن الطبيعة عاقلةٌ، حكيمةٌ، مدبرةٌ، عالمةٌ، قادرةٌ. وهذه هى بعض صفات الألوهية. فلم تسمى إذن الطبيعة طبيعة ؟ ولا تسمى إلهاً ؟

إن المسافة قريبة جداً هنا بين الطبيعة وبين الإله، وأنه لأقرب إلى العقل والمنطق أن يقوم على الموجود مدبر واحد، يؤلف بينه وبين وحداته، ويجمع بين أشتاته، بدلاً من قيام مدبرات فى وحدات الطبيعة، وتجعل منها نظاماً واحداً.

ولذلك قال علماء التفسير: أن المراد بقيام السماء والأرض بأمر من الله ثبوتهما على حالهما، من حركة وسكون، وتغيير وثبات، بأمره تعالى. . وقد عرف أمره بقوله: ﴿ **إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ** ﴾ [يس: ٨٢].

فمن آيات الله أن تقوم السماء والأرض بأمره، ملبية لهذا الأمر، طائعة له، دون انحراف ولا تلكؤ، ولا اضطراب.

نعم: إن الوجود كله عابد بطبيعته، منصاع لوظيفته، لا يسعه إلا أن يطيع ربه فى ولاء لا يشوبه استنكاف، ولا يطاوله تأب، بل إنه جميعاً من أعلاه إلى أسفله يهتف أمام عظمة القاهر، هتاف العابد تجاه قدسية المعبود، بما سجله الحق فى قوله تعالى: ﴿ **ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ** ﴾ [فصلت: ١١].

وقال تعالى: ﴿ **أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ** ﴾[الحج: ١٨].

وقال تعالى: ﴿ **وإن من شئ إلا يسبح بحمد ربه ولكن لا تفقهون تسبيحهم** ﴾ [الإسراء: ٤٤]. والإنسان وإن كان يساوق الكون فى العبادة بفطرته، فإنه ينبغى

عليه أن يفوقه فى العبادة، وأن يعلوه فيها درجات تتناسب وتركيبه وتكوينه المتميز بالعقل والإرادة والإختيار، والميول، والنزعات. بيد أن الإنسان من طبعه أن ينسى أحياناً، وأن يغفل، وأن يجحد أحياناً، وأن يكفر، فكان جديراً بمكانته من ربه أن يذكره الله بحقه عليه فى الطاعة والعبادة.

ولهذا كان قوله تعالى: ﴿**ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره**﴾ دعوة للإنسان للتفكر فى السموات والأرض.

والتفكير السليم يصل بالإنسان إلى معرفة خالق السموات والأرض ومدبر أمرها.

وقد جاء بعد قوله تعالى: ﴿**ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره**﴾. جاء قوله تعالى: ﴿**ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون**﴾ لأن من يرى هذا التقدير فى نظام الكون، وهذه السلطة على مقدراته، لا يشك فى تلبية البشر الضعاف لدعوة تصدر إليهم من الخالق القادر العظيم بالخروج من القبور. ففى قوله: ﴿**ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض**﴾ إشارة إلى أن أمر الله وسلطانه الذى تقوم به السموات والأرض أن تدعوا من القبور بعد موتكم دعوة واحدة فإذا أنتم قيام تنظرون. وهذا يعنى أن البعث بعد الموت، نظام قائم فى هذا الوجود، أشبه بنظام دوران الكواكب فى أفلاكها، والليل والنهار فى فلكهما.

وفى العطف بثم ﴿**ثم إذا دعاكم دعوة**﴾ إشارة إلى أن هذه الدعوة التى يدعى بها الموتى، لم يجئ وقتها بعد، وأنها أمر مستقبل، ولا يعلم أحد متى تكون، وإن كان من المعلوم أنها لا تقع إلا بعد أن يموت الناس جميعاً.

وقوله تعالى بعد الآية السابقة: ﴿**لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ**﴾ [البقرة:١١٦]. إشارة إلى أن هذا الوجود فى سمائه وأرضه هو خاضع لأمر الله، مستجيب له، وأن الموتى إذا دعوا من قبورهم، لا يملكون إلا أن يستجيبوا لما دعاهم إليه سبحانه قال تعالى فى سورة مريم: ﴿**إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِلاَّ آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَة**

فَرْدًا﴾ [مريم:٩٣-٩٥]. فكل من فى السموات والأرض من خلائق، قانتون لله، طائعون. والقنوت لزوم الطاعة مع الخضوم.

وآيات الله سبحانه وتعالى تلفت الأنظار إلى عجائب الكون الدالة على كمال قدرة الخالق، وحكمته وتدبيره، الناطقة بأن من مقتضيات هذه الحكمة أن يكون هناك بعث لحساب الناس.. وأن يكون من مقتضيات تلك القدرة أن تمتد إلى بعث الناس ورجوعهم إلى الخالق الذى بدأهم.

* * *

من آيات الله

فى إرسال الرياح

قال تعالى فى سورة الروم: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَن يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ الْفُلْكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [الروم: ٤٦].

إن هذه الآية الكريمة تذكر الناس بما لله سبحانه وتعالى من نعم لا تحصى، يعيشون فيها ولا يكادون يلتفتون إليها. ولله سبحانه فى خليقته نعماً، تطالع الناس فى صباحهم ومسائهم، وتحيط بهم من فوقهم ومن تحتهم، وعن إيمانهم، وعن شمائلهم، منها المنظور، والمستور، والمعلوم، والمجهول، تفيض عليهم بآثارها الملموسة فى أنفسهم، وفى آفاقهم، بحيث تفوق العد، وتتطاول على الإحصاء.

وكثير من الناس يغفلون عن نعم الله، خاصة إذا كانت نعماً عامة شاملة تسع الناس جميعاً كالماء، والهواء، والنور، وغيرها.. فهذه النعم إذا كانت حظاً مشاعاً فى الناس، لا يتكلفون لها ثمناً، بل تأتيهم عفواً صفواً بلا حساب. إذا كانت كذلك، فإنهم قل أن يلتفتوا إليها، وأن يعدوها نعمة من نعم الله عليهم.

إن الإنسان إنما ينظر إلى نفسه خاصة، ويلتفت إلى الأشياء التى تعنيه وحده، وتقع ليده دون غيره، ويكاد يستأثر بها، أو تلك التى يتمايز فيها، وتختلف حظوظهم منها، والتى هى مجال تنافس بينهم.

وفى قوله تعالى: ﴿**ومن آياته أن يرسل الرياح مبشرات وليذيقكم من رحمته**﴾ إشارة إلى هذه النعمة العظيمة، العامة الشاملة؛ وهى الرياح التى يرسلها الله مبشرات، تسوق بين يديها السحاب، الذى يحمل الحياة للناس والدواب، والأنعام، والأرض، بما ينزل منه من ماء، فهو الرحمة التى ينزلها الله على عباده، ويذيقهم منها طعوم فضله وإحسانه.

وفى عطف ﴿ **ليذيقكم من رحمته** ﴾ على مبشرات إشارة إلى أن البشرى التى تحملها الرياح للناس. فيها سعادة، ورضا، وتهيؤ لاستقبال هذا الخير الوافد.

وقوله تعالى فى الآية: ﴿ **ولتجرى الفلك بأمره** ﴾ آية أخرى من آيات الله فى هذه الرياح المرسله من عنده. إنها تدفع السفن على ظهر البحار والأنهار، وتسيرها حيث يريد الناس، وذلك بأمر الله وقدرته، ولو شاء لأمسك الريح، فظلت السفن رواكد على ظهر الماء، لا تتحرك إلى أى اتجاه. كما يقول سبحانه وتعالى فى سورة الشورى: ﴿ **إِن يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِ** ﴾ [الشورى: ٣٣].

وقوله تعالى فى الآية: ﴿ **ولتبتغوا من فضله** ﴾ آية من آيات الله، فى هذه الرياح المرسلة، التى تدفع السفن إلى حيث يتجه بها الناس، فتحركها على ظهر الماء، وتحريك السفن هو فى ذاته آية تدل على قدرة القادر العظيم.

وما يحصله الذين يركبون هذه السفن من منافع، هو آية أخرى من آيات الله، فيما يجرى بين الناس من تبادل المنافع.

وقوله تعالى فى الآية: ﴿ **ولعلكم تشكرون** ﴾ هو آية أخرى من آيات الله فى هذه الرياح المرسلة من عنده، التى تحدث هذه الآثار العظيمة فى حياة الناس.

وهذه الآية الكريمة: ﴿ **ومن آياته أن يرسل الرياح مبشرات** ﴾. وهى تحريك ألسنة العباد، بحمد الله، والثناء عليه، وإقامة شعائره، على الولاء له، وافراده بالعبودية.

ولكن أكثر الناس لا يقيمون وجوههم إلى الله، ولا يذكرون له هذه النعم، وهذا هو السر فى تصدير الشكر بحرف الرجاء «لعل» الذى يفيد الدعوة إلى هذا الأمر المحجوب المطلوب، ولكن قليل هم أولئك الذين يقع لهم، أو منهم هذا الأمر.

وفى سورة الروم آيات أخرى تكشف عن آيات الله ودلائل قدرته فى حركة الرياح وما تثير من أمواج وبخار، وسحاب، وما ينزل من السحاب من ماء، وما يدخل منه على الناس من بشر وغبطة. قال تعالى: ﴿ **اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ**

سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ﴾ [الروم: ٤٨، ٤٩]. فالرياح فى هذه الآية تثير سحاباً فيبسطه الله فى السماء كيف يشاء، ويجعله كسفاً أى قطعاً متراكمة، وسرعان ما يتفتق هذا السحاب عن وَدْقٍ أى مطر يدق الأرض، وينزل عليها آثاره.

إن الرياح فى قوله تعالى: ﴿**الله الذى يرسل الرياح..**﴾ هى التى أثارت السحاب وهى التى قبل أن تثيره، قد أثارت وجه البحار، وحركت أمواجها، وحملت ما على وجهها من أبخرة إلى السماء، فإذا هى ضباب وسحاب.

فآية الرياح التى أشارت إليها الآية ﴿**ومن آياته أن يرسل الرياح مبشرات**﴾ قد كشف عن وجهها فى قوله تعالى: ﴿**الله الذى يرسل الرياح فتثير سحابا**﴾ فكان هذا العطاء الجزيل من آيات الله.

وكان ذلك يشكل أروع أداة للدلالة على وجود الخالق، وقدرته، وضرورة الإيمان به والاعتراف بفضله، ووجوب التوجه إليه وحده، بما وجب من حقه فى الإجلال، وحتمية استشعار عظمته وسلطانه، وتعميق الخضوع له، والخشية منه، وتأكيد الحب فيه، والولاء له. وقال تعالى فى سورة الأعراف: ﴿**وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّىٰ إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالاً سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ**﴾ [الأعراف: ٥٧].

الإنسان متلهف أبداً إلى رحمة الله من المطر، لتحيا أرضه، فيذكره رب العزة جل جلاله أنه هو الذى يرسل الرياح بشرى أمام المطر.

ولا شك أن عرض القرآن الكريم لهذه المشاهد، تؤدى إلى نقل الإنسان عن طريق التأمل والتفكر إلى الإيمان بالله، وبالكتاب وبالنبوة وبالبعث.

وعندما يتلقى الإنسان منهجه عن ربه، تتحدد علاقته بالكون من حوله، فيدرك أن كل ما فى الكون مسخر لخدمته ومصلحته، تمكيناً له فى الأرض.

* * *

من آيات الله

في الرزق

قال تعالى في سورة الروم: ﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣٧﴾ فَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ذَلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الروم: ٣٧, ٣٨].

يذكر العلماء أن الرؤية هنا فى قوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ رؤية بصرية وعلمية معاً، أى أنها رؤية بالنظر فى وجوه الحياة، وفى أحوال الناس.

ومن هذه الرؤية يجئ العلم الذى يرى منه المبصرون: أن الله سبحانه لم يجعل الناس على سواء، فيما قدر لهم من أرزاق فى هذه الدنيا، كما يقول سبحانه فى سورة الزخرف: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾ [الزخرف: ٣٢].

فهذا العلم الذى يجئ به للنظر فى أحوال الناس، وفى اختلاف أرزاقهم، يدل على أن ذلك لم يكن إلا بإرادة عليا، وعن تقدير لمالك الملك، المتصرف فى العباد.

فيبسط الله الرزق ويوسعه لبعض الناس، ويضيقه ويقدره لآخرين، بحكمة وتقدير.. فالأرزاق بيد الله، يعطى منها ما يشاء لمن يشاء.. ذلك ما يعرفه المؤمنون بالله، ويرضون بما قسم الله لهم، فلا يبطر المؤمن إذا أصابته نعمة، ولا ييأس أو يحزن إذا قدر الله رزقه. ﴿إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون﴾ أما غير المؤمنين فإنهم لا يرون لله فى ذلك شيئاً، وإنما هى الدنيا، يقتتل فيها الناس، ويتخاطفون ما عليها، كما تتخاطف الذئاب فريسة وقعت لها، فمن وقع ليده أو فمه ما يشبعه رضى واطمأن، ومن لم يقع ليده أو فمه شئ، اغتم، وحزن، ومات أسى وحسرة.

وهذه الآية ﴿أولم يروا أن الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر﴾ هى أشبه بتعقيب على الآية التى قبلها. وهى قوله تعالى: ﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾ [الروم: ٣٦].

ذلك أنه لو نظر الإنسان إلى أحوال الدنيا وتقلبات الأيام، وتبدل الأحوال بالناس، ثم كان له من هذا النظر عبرة وموعظة، لكان له من ذلك موقف رشيد حكيم مع ما يبتلى الله سبحانه العباد، من نعم، ونقم.

فإذا ساق الله تعالى إليه مزيداً من النعم، لم يستبد به الفرح، ولم يأخذه الغرور، لأنه يعلم أن ذلك إلى تبديل، وتحويل، وزوال. وأنه إذا مسه سوء، وأصابه ضُر، لم يقتلعه الجزع، ولم يخنقه اليأس والقنوط، لأنه يعلم بإيمانه بالله أن تلك الحال لن تدوم، وأن مع العسر يسراً، وأن بعد الضيق فرجاً وسعة، كما يقول سبحانه: ﴿سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ [الطلاق: ٧] وكما يقول جل شأنه: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۝ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح: ٥، ٦].

فالرزق فى سعته وضيقه تابع لمشيئة الله، فعلى الإنسان أن يعلم أن الرحمة التى ذاقها، والسيئة التى أصابته، ممكنة الزوال، بمشيئة الله سبحانه، ولا موجب للفرح بما لا يُؤمنُ من فقده، ولا للقنوط مما يُرجى زواله.

وما دام المال مال الله، فهو عارية فى يد البشر الذين استخلفهم عليه ليس لهم أن يتأخروا عن إنفاذ أمر الله فى هذا المال، فإذا أمرهم أن يؤتوا فئات من الناس شيئاً من المال، فعليهم أن يبادروا بذلك، فما يؤتونهم إلا من مال الله .

وللبشر حق الانتفاع بما فى أيديهم من مال الله، وهو الحق الوحيد الذى لهم فى هذا المال، والانتفاع بالمال قد يكون باستغلاله أو استثماره، كما هو الحال فى الطعام والشراب واللباس، وقد يكون بالتصرف فى المال تصرفاً شرعياً كالبيع والهبة والصدقة.

وللبشر أن ينتفعوا بمال الله فى هذه الوجوه كلها، وحق البشر فى الانتفاع بمال الله ليس حقاً مطلقاً وإنما هو حق مقيد بقيود.

فليس لهم أن ينتفعوا بهذا المال كما يشاءون، وإنما لهم أن ينتفعوا به فقط فى حدود المباح وحسب حاجتهم لهذا المال، وبالقدر الذى يكف عنهم الحاجة، ويدفعها، بشرط أن يكون ذلك كله مع الاعتدال دون سرف أو تقتير.

فليس لهم أن يسرفوا فى طعامهم وشرابهم ولباسهم وأمور معيشتهم، ولا يجوز لهم أن يقتروا على أنفسهم. قال تعالى: ﴿ **كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ** ﴾ [طه: ٨١].

وعن خولة الأنصارية قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن رجالاً يتخوضون فى مال الله بغير حق فلهم النار يوم القيامة».

ولا يخفى أن الإنسان إذا علم علماً يقينياً، أن الله هو الذى بيده كل شئ وأنه هو سبحانه الذى يجرى أرزاق العباد كما شاء وقدر.. إذا علم الإنسان هذا العلم، سخت نفسه بالعطاء والبذل، وسمحت يده بالإحسان ببعض ما أتاه الله، وخاصة ما كان متعلقاً بذوى القربى، واليتامى، والمساكين، فهؤلاء لهم حقوق فى أموال ذوى المال، وقد أوجبها الله لهم فى تلك الأموال قال تعالى: ﴿ **فَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ** ﴾ [الروم: ٣٨].

وشتان بين إنسان يعلم أن هذا المال الذى فى يده ليس له فيه شئ، وأن سعيه وكده لم يُحَصِّل ما قدره الله، وبين من يرى أن هذا المال الذى جمعه هو ثمره عمله وكده.

فالإنسان الأول: لا يضن بالمال على الحقوق الواجبة لله فيما أعطاه الله لأنه ﴿ **وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ** ﴾ [الحديد: ٧].

وأما الإنسان الثانى الذى يرى أن المال الذى معه هو من جمعه وكده، فإنه يتصرف فى هذا المال تصرف المستبد بما يملك ملكاً خاصاً، لا يرى لأحد شيئاً معه، كذلك فعل قارون، وكان جوابه على من دعاه أن يبتغى بما أتاه الله الدار الآخرة أن قال ﴿ **قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي** ﴾ [القصص: ٧٨]

لا شك أن المؤمن الذى ينفق المال فى سبيل الخير، ينال خيراً كثيراً، لأن الله سبحانه وتعالى قال ﴿**فآت ذى القربى حقه والمسكين وابن السبيل ذلك خير للذين يريدون وجه الله وأولئك هم المفلحون**﴾.

فالوسيلة المضمونة لمضاعفة الخير والثواب إنما هى إرادة وجه الله، أليس هو الذى يبسط الرزق ويقدر؟ أليس هو الذى يعطى الناس ويمنع؟ فهو الذى يضاعف إذن للمنفقين ابتغاء وجه الله.

* * *

من آيات الله

فى الشمس والقمر

قال تعالى في سورة فصلت: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [فصلت: ٣٧].

من آيات الله الكونية الدالة على قدرته ووحدانيته وحكمته: الليل والنهار فى تعاقبهما على حد معلوم، وتناوبهما على قدر مقسوم، ونور مقرر، وغير ذلك من الحكم العظيمة والآيات الباهرة.

فالليل والنهار آيتان كونيتان كبيرتان تنبهان إلى دقة الناموس الكونى الذى لا يصيبه الخلل مرة، ولا يدركه التعطيل مرة واحدة، يظل يعمل دائباً بالليل والنهار. فالليل للراحة والسكون والجمام، والنهار للسعى والكسب والقيام.

قال تعالى فى سورة الفرقان: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا﴾ [الفرقان: ٤٧].

وقال تعالى فى سورة القصص: ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ﴾ [القصص: ٧٣].

ولا يخفى من أوليات المبادئ التى جاء بها الإسلام ومن أهم الدعائم التى قامت عليها عقيدته، واستقامت عليها حضارته مبدأ إطلاق النظر للتأمل والاعتبار، بغية الوصول فى كل أمر مشكل، أو قضية مطروحة من المقدمات إلى نتائجها، ومن المسببات إلى أسبابها، ثم من التفكير فى الخلق إلى عظمة الخالق جل وعلا.

ففى رحاب الكون يدعو الإسلام إلى أعمال العقول، وفك القيود، وترك العنان للتأمل، بغية الوصول عن طريق العقل، والنظر الصائب، والفحص الدقيق فى آفاق الكون إلى معرفة الحق الذى بيده وحده سنن الكون ونواميسه.

ومن التوافق بين نواميس الكون ووجود هذا الإنسان مشاهد الليل والنهار وقد حببها القرآن الكريم إلى الإنسان.

ولم يجعل القرآن الليل والنهار متنافرين متصارعين، أو قوتين مهلكتين، تتعاقبان على فناء الإنسان، بل بين بجلاء أن هذا التعاقب إنما هو لمنفعة الإنسان وخيره فى هذه الحياة قال تعالى فى سورة الإسراء: ﴿**وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً**﴾ [الإسراء: ١٢].

أما الشمس والقمر فى قوله تعالى: ﴿**ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر**﴾ فهما آيتان من آيات الله.

والشمس كرة من الغاز الملتهب. ولقد بين الله سبحانه وتعالى فى القرآن الكريم هذا الاتقاد. فقال تعالى فى سورة نوح: ﴿**وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُوراً وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا**﴾ [نوح: ١٦].

وقال تعالى فى سورة يونس: ﴿**هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُوراً**﴾ [يونس: ٥].

فالشمس وصفت بالسراج المضئ، والقمر وصف بأنه المنير أى العاكس لضوء الشمس، وهذا إعجاز لأن الناس ما كانوا يعرفون هذا زمن نزول القرآن الكريم.

والشمس مصدر إشعاع وطاقة، أما القمر الذى يعكس ضوءاً ولا يشع حرارة فإن العلماء يقولون فى هذا: أن القمر كان يشع حرارة وضوءاً كالشمس، ثم برد فذهبت حرارته ونوره، وأصبح يعكس ضوء الشمس ليلاً. ويقول ابن عباس فى تفسير قوله تعالى: ﴿**وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ**

مُبْصِرَةً ﴾ [الإسراء: ١٢]. يقول: إن القمر آية الليل كان يضئ مثل الشمس، وأن الشمس آية النهار، فمحى الله تبارك وتعالى آية الليل أى طمس نوره لأن المحو لا يمكن أن يكون إلا لشئ موجود.

إن الشمس والقمر والأجرام السماوية الأخرى، تسير بنظام دقيق، محسوب لا يتعطل. قال الله تعالى فى سورة الأنعام: ﴿ **فَالِقُ الإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ** ﴾ [الأنعام: ٩٦].

وقال تعالى فى سورة يس: ﴿ **لا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ** ﴾ [يس: ٤٠].

إن هذه الآيات تتجلى فيها دقة التقدير فى تنسيق الكون والحركة، هذه الدقة التى لاحظ البشر جوانب منها منذ أقدم العصور، ولا يزالون يتعرفون على بعض جوانبها كلما ترقت عقولهم، وترقت وسائلهم فى الرصد والتسجيل.

لو كانت الشمس أكبر حجماً مما هى عليه، أو أشد حرارة، أو أقرب إلى الأرض لاحترق كل ما على وجه الأرض ولتعذرت الحياة عليها.

وكذلك لو كانت الشمس أصغر، أو أقل حرارة، أو أبعد مما هى عليه، لبردت الأرض وتعذرت الحياة عليها أيضاً..

ولو كانت دورة الأرض حول نفسها أو حول الشمس أسرع أو أبطأ، لحدث هذا أو كذلك.

ولو كان القمر أقرب إلى الأرض أو أكبر حجماً مما هو عليه، لارتفع المد الذى يحدثه فى مياه المحيطات بحيث يغمر اليابسة كل يوم مرتين.

وهكذا آلاف الموافقات فى تصميم الكون، وفى حركة أجرامه، وكلها تشهد بدقة الصنعة، وكمالها، وتناسقها كما تشهد باليد المبدعة، التى أبدعت هذا الكون وتشهد بالتدبير، والتقدير، كما تشهد بالتسخير، والتسيير وتنفى خرافة المصادفة، وخرافة التلقائية كما تنفى الحتمية الآلية.

إن هناك قصداً وغاية كما أن هناك تقديراً ومشيئة.

إن هذه الآيات حين نتأملها بالبصيرة المفتوحة، والقلب الواعى، ترشدنا إلى قدرة الخالق.

ومع قدرة خالق هذا الكون والشمس والقمر وعظمته التى تتجلى فى آياته الكونية فقد وجُد ناس يجحدون الله، ولا يسجدون له.

ألا يعلم هؤلاء: أن الكون، والشمس، والقمر، والنجوم، والليل، والنهار على عظيم خلقهم وبديع صنعهم يعبدون الله ربهم، ويسجدون له.

قال تعالى: ﴿**لا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ**﴾ [فصلت: ٣٧].

فالخالق هو وحده الذى يتوجه إليه المخلوقون أجمعين، والشمس والقمر مثلكم يتوجهون إلى خالقهما. فتوجهوا معهم إلى الخالق الواحد الذى يستحق أن تعبدوه وحده لا شريك له.

* * *

من آيات الله

فى إحياء الأرض

قال تعالى فى سورة فصلت: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [فصلت: ٣٩].

إن المتأمل فى هذه الآية الكريمة أعماقاً وأبعاداً يجد أن للقرآن الكريم طريقته فى بيان إمكان البعث والنشور وقد كانت مشاهد الكون المنظور: السماء، الأرض، الماء، النبات، الليل، النهار، الدليل المباشر لتحقيق أغراض القرآن الكريم فى هذا كله. استدل القرآن الكريم بأحوال السماء والأرض، وما بينهما على البعث والنشور، فالذى خلق هذا الكون العظيم، البديع المتسق على غير نظير سابق، ولا مثال محتذى والذى أوجد هذه الأجرام من العدم، ولم يعجزه إنشاؤها، قادر على أن يبعث الإنسان، وينشئه نشأة جديدة. قال تعالى فى سورة الإسراء: ﴿ وَقَالُوا أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴾ وقال تعالى فى سورة الإسراء أيضاً: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ ﴾ [الإسراء: ٩٩].

وقال تعالى فى سورة الأحقاف: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [الأحقاف: ٣٣].

وقد لفت القرآن الأنظار إلى آيات الله المحيطة بالغافلين من سماء رفعها وأرض بسطها، واستدل القرآن الكريم بأحوال النبات على البعث والنشور.

قال تعالى فى سورة الحج: ﴿ وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ

وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ من كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (٥) ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٦) وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لاَّ رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي الْقُبُورِ﴾ [الحج: ٥-٧].

وقال تعالى فى سورة الروم: **﴿فَانظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾** [الروم: ٥٠].

لقد قدم القرآن طرقاً متنوعة تدور كلها حول محور واحد، وهو إثبات قدرة الله الباهرة فى الإنسان والكون.

فالإنسان وتعاقبه فى الخلق، وتحوله من حال إلى حال، والأرض وما تخرجه من نبات كل ذلك آية من آيات قدرته.

ومهما اختلفت الألفاظ التى وصفت بها الأرض قبل الإنبات. **﴿وترى الأرض هامدة﴾** و **﴿إنك ترى الأرض خاشعة﴾** و **﴿فانظر إلى آثار رحمة الله كيف يحي الأرض بعد موتها﴾** فإنها لا تخرج عن معنى واحد، هو فقدان الأرض معالم الحياة والوجود قبل إنزال الماء عليها، وهو ما عُبِّر عنه فى الآيات بالهمود، والخشوع، والموت، وقد وصف القرآن هذه العملية عملية إخراج النبات من الأرض بالماء بأنها آية، وهو بهذا يشير إلى ما لها من دلالة وبينة على إمكان البعث والنشور، وإلى هذه القدرة الحكيمة المتصرفة فى الكون جميعه، لا يعجزها شئ فى الأرض ولا فى السماء.

قال تعالى: **﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾** [فصلت: ٣٩].

وكأن الله سبحانه يقول لبنى آدم: أنتم ترون هذه الأرض التى منها زادكم وماؤكم، وفيها ترعى أنعامكم، هذه الأرض إذا أمحلت ماتت، ويبس نباتها وغار ماؤها، فإذا نزل المطر عليها من السماء تشققت، ورأيت النبات يبزغ من بين الشقوق، ثم يخضر، فيصير أطلاً، يتغذى منه الإنسان، ويسمن عليه الحيوان، ويدر الضرع، وينضر الزرع، أليس الذى أحياها بقادر على أن يُحيى الموتى،

بلى. وما أشبه خروج النبات بعد المطر بخروج الأجسام من تحت الثرى. قال رسول الله ﷺ: «إن الله يمطر على الأرض مطر الحياة فيخرج الناس كأنهم نبات». .

ومشهد إحياء الأرض بالماء النازل من السماء مشهد له دلالته العميقة الناطقة بالقدرة على الإحياء والإخراج قال تعالى فى سورة فاطر: ﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَٰلِكَ النُّشُورُ﴾ [فاطر: ٩].

وقال تعالى فى سورة الأعراف: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّىٰ إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالاً سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٥٧].

فمن آيات الله الدالة على توحيده وقدرته على إحياء الموتى والبعث أنك ترى الأرض خاشعة هامدة لانبات فيها، بل هى ميتة يابسة مغبرة، فإذا أنزلنا عليها الماء تحركت بالنبات وربت وانتفخت. قال ابن كثير: أى أخرجت من جميع ألوان الزروع والثمار.

وإذا عدنا إلى النص القرآنى: ﴿**ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت**﴾ وجدنا أنه ينتهى بقوله تعالى: ﴿**إن الذى أحياها لمحى الموتى إنه على كل شئ قدير**﴾.

ويتكرر فى القرآن عرض مثل هذا المشهد واتخاذه نموذجاً للإحياء فى الآخرة ودليلاً كذلك على القدرة. . ومشهد الحياة فى الأرض قريب من كل قلب، لأنه يلمس القلوب قبل أن يلمس العقول. والحياة حين تنبض من بين الموات توحى بالقدرة المنشئة إيحاءً خفياً، ينبض فى أعماق الشعور.

وإن هذه القدرة التى أحيت تلك الأرض الميتة، لا يعجزها أن تعيد الأجسام الميتة الهامدة إلى الحياة مرة أخرى، فهذا من ذاك سواء بسواء.

وورد فى تفسيرات بعض الآيات متكرراً فى ثنايا القرآن: أنه إذا أراد الرحمن بعث من فى القبور أرسل مطراً مخصوصاً منه لهذه الغاية، فإذا نزل لا يترك بقية وجدها من إنسان، ولو ظفر أو كسرة عظم إلا نبتت كما ينبت العشب، فإذا تكاملت الأجسام لحماً طرياً مُخَلَّقاً، أرسل الله إسرافيل فينفخ النفخة الأولى فترتجف تلك الأجسام، فتسرى فيها بإذن ربها الأرواح، ثم يأمره فينفخ النفخة الثانية: ﴿**فإذا هم قيام ينظرون**﴾.

إننا فى أشد الحاجة إلى أن ندرك ونتأمل، ندرك ما حولنا من مشاهد ونتأمل فى تلك المشاهد، لنقف على ما وراءها.

ولعلنا ندرك أن عرض القرآن الكريم لمشاهد الكون ليس مقصوداً لذاته. وإنما كان نقطة انطلاق لغاية وراءها، وهى نقل الإنسان عن طريق التأمل والتفكر فى ملكوت السموات والأرض إلى الإيمان بالله، وبالكتاب، وبالنبوة، وبالبعث.. صاحب المشاهد أساليب مختلفة، استجاشة للأحاسيس وتحريكاً للنفوس.

* * *

من آيات الله

فى الآفاق وفى الأنفس

قال تعالى فى سورة فصلت: ﴿ **سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ** ﴾ [فصلت: ٥٣].

يقول ابن كثير: أى ستظهر لهم دلالاتنا وحججنا على كون القرآن حقاً منزلاً من عند الله على محمد رسول الله ﷺ بدلائل خارجية فى الآفاق.

﴿ **وفى أنفسهم** ﴾ يحتمل أن يكون المراد من ذلك: ما الإنسان مركب منه، وفيه، وعليه من المواد والأخلاط والهيئات العجيبة كما هو فى علم التشريع، الدليل على حكمة الصانع تبارك وتعالى، وكذلك ما هو مجبول عليه من الأخلاق المتباينة من حسن وقبيح وغير ذلك.

إن قوله تعالى: ﴿ **سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم** ﴾ وعدٌ من الله لعباده بنى الإنسان أن يطلعهم على شئ من خَفَايا هذا الكون، ومن خفايا أنفسهم على السواء، وعدهم أن يريهم آياته فى الآفاق وفى أنفسهم.

ومن أصدق من الله حديثاً. وهذا وعده يتحقق كلَّ يوم، فيكشفُ للإنسان كل يوم عن جديدٍ من خفايا هذا الكون، ومن خفايا هذه النفس على السواء.

لقد صدقهم الله وعده، فكشف لهم عن آياته فى الآفاق، فى خلال القرون الأربعة عشر، التى تلت هذا الوعد، وكشف لهم عن آياته فى أنفسهم، وما يزال يكشف لهم كل يوم عن جديد.

لقد عرف الإنسان أشياء كثيرة بعد نزول القرآن، ولو أدرك كيف عرفها وشكر لكان له فيها خير كثير.

وينظر الإنسان فيرى البشر، قد كشفوا كثيراً جداً منذ ذلك الحين، فقد تفتحت لهم الآفاق ، وتفتحت لهم مغاليق النفوس بالقدر الذى شاءه الله.

عرفوا منذ ذلك الحين أن أرضهم التى كانوا يظنونها مركز الكون، إن هى إلا ذرة صغيرة تابعة للشمس، وعرفوا أن الشمس كرة صغيرة، منها فى الكون مئات الملايين، وعرفوا طبيعة أرضهم، وطبيعة شمسهم، وربما عرفوا طبيعة كونهم إن صح ما عرفوه.

وعرفوا الكثير عن مادة هذا الكون الذى يعيشون فيه- إن صح أن هناك مادة- عرفوا أن أساس بناء هذا الكون هو الذرة، وعرفوا أن الذرة تتحول إلى إشعاع، وعرفوا إذن أن الكون كله من إشعاع فى صور شتى، هى التى تجعل منه هذه الأشكال، والأحجام.

وعرفوا الكثير عن كوكبهم الأرضى الصغير، عرفوا أنه كرة أو كالكرة، وعرفوا أنه يدور حول نفسه، وحول الشمس، وعرفوا قاراته، ومحيطاته، وأنهاره، وكشفوا عن شئ من باطنه، وعرفوا الكثير من المخبوء فى جوف هذا الكوكب من الأقوات وعرفوا الكثير من مشاهد هذه الخلائق من الأحياء التى تعمر الأرض، من النبات، والحيوان، والطير، والسمك، والزواحف، والحشرات.

قال تعالى فى سورة الأنعام: ﴿ وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴾ [الأنعام: ٣٨].

وعرفوا كذلك وحدة النواميس التى تربط هذا الكوكب الأرضى بالكون الكبير، ومن الناس من اهتدى فارتقى من معرفة النواميس إلى معرفة خالق النواميس، ومنهم من انحراف عند ظاهر العلم لا يتعداه. قال تعالى فى سورة الروم: ﴿ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ﴾ [الروم: ٧].
ولم تكن فتوح العلم والمعرفة فى أغوار النفس بأقل منها فى جسمه، فقد عرف الإنسان شيئاً عن الجسم البشرى وخصائصه، وأسرار تكوينه وتركيبه، ووظائفه

وأمراضه وغذائه، وتمثيله، وعرفوا من أسرار عمله وحركته ما يكشف عن خوارق لا يصنعها إلا الله. وعرفوا أيضاً عن النفس البشرية شيئاً. .

وما يزال الإنسان فى طريق المعرفة. وستجد الأجيال فى كل عنصر نصيبها مدخراً من الآيات التى لم تكشف لنا بعد، وتبقى معارض الكون ومشاهده المنظورة معارض هائلة، حافلة بكل عجيب وجديد، إلى أن يرث الله الأرض وما عليها، ولو مضت الأجيال تتأمل آيات الله فى الآفاق وفى الأنفس، وتشير مجرد إشارة إلى ما فيها من عجائب، وإلى ما تشير إليه هذه العجائب، ما انتهى لها قول ولا إشارة.

ويقول الرازى فى تفسيره: دلائل التوحيد محصورة فى قسمين: دلائل الآفاق ودلائل الأنفس، ولا شك أن دلائل الآفاق أعظم كما قال تعالى: ﴿ **لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ** ﴾ [غافر: ٥٧].

ولقد زود الله الإنسان بالعديد من الوسائل والمدركات، وأحاطه بمناخ هائل مفعم بمختلف الصور فى الأنفس وفى الآفاق، مما يستطيع بها جميعاً لو استغلها وتفاعل معها أن يصل إلى أقصى ما يدعم كيانه من الإنطلاق.

ولقد بلغ من حفاوة الإسلام بالعقل وحرصه على أن يزاول فى حيوية تفكيره، وتأمله، ونظره: أن قامت الدعوة الإسلامية نفسها وهى تستنهض العقل كما اعتمدت عليه فى إثبات وجود الله، وفى إقناع الناس بالإسلام، وحملهم على الإيمان بالله، ورسوله، وكتابه.

ومن أجل ذلك نراه يستثير تفكير الناس، ويرمى إلى إيقاظ عقولهم، ويدعوهم بشتى الوسائل إلى ضرورة التفكير فى الأنفس والآفاق، وجميع ما تلمسه حواسهم، ويقع تحت مدركاتهم.

والحق أن دعوة الإسلام إلى إطلاق الفكر، وإيقاظ البصيرة، للنظر والتأمل لا ولن تعدلها دعوة فى القديم أو الحديث إلى أن تقوم الساعة، وحسبه من ذلك إن كان النظر فى الكون والتأمل فيه، قرين الإيمان الحق، وقائداً ومرشداً وداعياً

إليه. قال تعالى فى سورة يونس: ﴿قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ١٠١].

ولا شك أن النظر فى الآفاق، وفى الأنفس، يمُد عقلَ المؤمن وقلبه بزادٍ من المشاعر، والتأملات، وزادٍ من الاستجابات والتأثرات، وقدرٍ من سعة الشعور بالوجود، ومن التعاطف مع هذا الوجود، فيزداد إيمانه بوجود الله، وجلاله، وتدبيره، وسلطانه، وحكمته، وعلمه.

والمؤمنون هم الذين تتفتح قلوبهم لآيات الله الكونية المبثوثة فى تضاعيف هذا الكون وثناياه المشهودة فى تنسيقه وتنظيمه، المنثورة فى جوانبه حيثما امتدت الأبصار، والمؤمنون هم الذين يدركونها لأنهم مفتوحو البصائر، والمشاعر لتلقى الإدراك. ﴿إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الجاثية: ٣].

* * *

من آيات الله

خلق السموات والأرض وما يبث فيهما من دابة

قال تعالى فى سورة الشورى: ﴿**وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ**﴾ [الشورى: ٢٩].

ويذكر العلماء الباحثون: أن المقصود بالسماء: هو كل ما علا الناس، أو ارتفع فوق رؤسهم من سائر أجرام القضاء التى تنتشر فى هذا الكون بأسره مثل النجوم، والشموس، والكواكب، والمذنبات، والأقمار وغيرها.. وهى كلها تجرى فى مساراتها، وتدور فى أفلاكها، وهذه السماء كما يعرف العلم هى المظهر المادى لهذا الوجود.

ولكن السموات المسكونة هى كواكب دبت عليها الحياة، لتوفر الظروف الملائمة عليها، ولا يلزم أن تكون كل الكائنات من نفس جسم الإنسان.

ويقول علماء التفسير: أن من آيات الله الدالة على عظمته، وقدرته العظيمة، وسلطانه القاهر: خلق السموات والأرض مع عظمهما وما بث فيهما من دابة وما ذرأ وفرق فى السموات والأرض من دابة..

ولا مانع لدى العلماء من أن يكون قوله تعالى: ﴿**وما بث فيهما من دابة**﴾ إشارة إلى وجود حياة على كواكب أخرى غير الأرض، وقد يكون المراد غير ذلك.

وإذا كانت الآية: ﴿**ومن آياته خلق السموات والأرض وما بث فيهما من دابة**﴾. تشير إلى وجود ما يدب فى السموات وفى الأرض، فإن هناك آيات أخرى أيضاً. قال تعالى فى سورة الأنبياء: ﴿**قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ**﴾ [الأنبياء: ٤]. وقال تعالى فى سورة النحل: ﴿**وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مِن دَابَّةٍ وَالْمَلائِكَةُ وَهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ**﴾ [النحل: ٤٩].

وآية سورة النحل من أوضح الآيات التى تفرق بين الملائكة وما فى السموات من مخلوقات تدب هى سكان الكواكب أو سكان السموات.

وجدير بالذكر على أية حال، بعد أن لمس العلماء اتساع هذا الوجود، يكون من العبث بل من الحماقة، أن نقصر ملكوت الله من الكائنات الحية المفكرة التى فيه على البشر سكان الأرض، وليس لهذا القصر من دليل سوى أنه لم تتح للإنسان فرصة زيارة السموات أو الاتصال الفعلى بسكانها.

وآية: ﴿**ومن آياته خلق السموات والأرض وما بث فيهما من دابة**﴾ معروضة على الأنظار، قائمة تشهد بذاتها على ما جاء الوحى ليشهد به، وآية السموات والأرض لا تحتمل جدلاً ولا ريبة.

فهى قاطعة فى دلالتها، تخاطب الفطرة بلغتها، وما يجادل فيها مجادل وهو جاد، إنها تشهد بأن الذى أنشأها ودبرها ليس هو الإنسان ولا غيره من خلق الله.

ولا مفر من الإعتراف بمشئ مدبر، فإن ضخامتها الهائلة، وتناسقها الدقيق، ونظامها الدائب، ووحدة نواميسها الثابتة، كل أولئك لا يمكن تفسيره عقلاً إلا على أساس أن هناك إلهاً أنشأها ويدبرها، أما الفطرة فهى تتلقى منطق هذا الكون تلقياً مباشراً، وتدركه، وتطمئن إليه، قبل أن تسمع عنه كلمة واحدة من خارجها.

قال تعالى فى سورة الأنعام: ﴿**وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ**﴾ [الأنعام: ٧٣].

وقال تعالى فى سورة إبراهيم: ﴿**أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ**﴾ [إبراهيم: ١٩].

وقال تعالى فى سورة الحجر: ﴿**وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ**﴾ [الحجر: ٨٥].

وقال تعالى فى سورة النحل: ﴿**خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ**﴾ [النحل: ٣].

وقال تعالى فى سورة العنكبوت: ﴿**خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ**﴾ [العنكبوت: ٤٤].

وتنطوى آية السموات والأرض على آية أخرى فى ثناياها ﴿**وما بث فيهما من دابة**﴾.

والحياة فى هذه الأرض أية أخرى، وهى سر لم ينفذ إلى طبيعته أحد، فضلاً عن التطلع إلى إنشائه.

الحياة فى الأرض سر غامض لايدرى أحد من أين جاء، ولا كيف جاء، ولا كيف يتلبس بالأحياء.

هذه الأحياء المبثوثة فى كل مكان، فوق سطح الأرض وفى ثناياها، وفى أعماق البحر، وفى أجواز الفضاء - ودع عنك تصور الأحياء الأخرى فى السماء - هذه الأحياء المبثوثة التى لا يعلم البشر منها إلا النزر اليسير، ولا يدرك منها بوسائله المحدودة إلا القليل المشهور.

هذه الأحياء التى تدب فى السموات والأرض يجمعها الله حين يشاء، لا يضل منها فرد واحد ولا يغيب، وبنو الإنسان يعجزهم أن يجمعوا سرباً من الطير الأليف ينفلت من أقفاصهم، أو أسراباً من النحل يطير من خلية لهم.

وأسراب من الطير لا يعلم عددها إلا الله، وأسراب من النحل والنمل وأخواتها لا يحصيها إلا الله، وأسراب من الحشرات والهوام والجراثيم لا يعلم موطنها إلا الله وأسراب من الأسماك وحيوان البحر لا يطلع عليها إلا الله، وقطعان من الأنعام والوحوش هائمة وشاردة فى كل مكان، وقطعان من البشر مبثوثة فى الأرض فى كل مكان، ومعها خلائق أربى عدداً، وأخفى مكاناً فى السموات من خلق الله، كلها كلها يجمعها الله حين يشاء.

فالله سبحانه قادر على جمع هذه المخلوقات المنتشرة فى عوالم الوجود فى السموات وفى الأرض، ثم إذا شاء سبحانه جمعهم من أقطار السموات والأرض وهم أحياء، ثم بعد أن يموتوا ويبعثوا قال تعالى: ﴿**وهو على جمعهم إذا يشاء قدير**﴾ أى على جمع دواب الأرض والسماء.

فإن كان المراد فى الآية الإشارة إلى دواب فى كواكب أخرى، فالآية إذن تشير إلى إمكانية جمع بعضهم ببعض. ويقول الزمخشرى فى تفسيره: «ولا يبعد أن يخلق فى السموات حيواناً، يمشى فيها مشى الأناسِّى على الأرض. سبحان الذى خلق ما نعلم وما لانعلم من أصناف الخلق». .

وإن لم يكن الأمر كذلك فالآية تتحدث عن قدرته عز وجل على جمعهم يوم القيامة. قال ابن كثير: أى يوم القيامة يجمع الأولين والآخرين، وسائر الخلائق فى صعيد واحد، يسمعهم الداعى، وينفذهم البصر، فيحكم فيهم بحكمة العدل الحق.

* * *

من آيات الله

فى السموات والأرض

قال تعالى فى سورة الجاثية: ﴿إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۝ وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَابَّةٍ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [الجاثية: ٣-٤].

فى هذه الآيات البينات يشير القران الكريم إلى آيات الله المبثوثة فى السموات والأرض، وهذه الآيات لا تقتصر على شئ دون شئ، ولا حال دون حال، فحيثما مد الإنسان ببصره، وجد آيات الله تطالعه فى هذا الكون العجيب.

وأى شئ ليس أية، ففى كل نظرة ينظر بها المؤمن فى هذا الوجود يرى آيات دالة على قدرة الله، وعلمه وحكمته. فالكون كله فى نظر المؤمن بالله هو كتاب الله المفتوح يقرأ فى صفحاته آيات تتحدث عن جلال الله، وعظمته، وكماله.

هذه السموات بأجرامها الضخمة، وأفلاكها الهائلة، وهى على ضخامتها مبعثرة كالنثار الصغير فى الفضاء، الفضاء الهائل الرهيب الجميل.

ودورة هذه الأجرام فى أفلاكها، فى دقة، واطراد، وتناسق جميل لا تشبع العين من النظر إليه، ولا يشبع القلب من تمليه.

وهذه الأرض الواسعة العريضة بالقياس إلى البشر وهى ذرة أو هباءة بالقياس إلى النجوم الكبيرة، ثم بالقياس إلى هذا الفضاء الذى تتوه فيه، تتوه لولا القدرة التى تمسك بها، وتنتظمها فى العقد الكونى الذى لا يتوه شئ فيه.

وما أودعه الله طبيعة هذه الأرض فى موقعها الكونى الخاص، من صلاحية لنشوء الحياة فوقها، ومن خصائص دقيقة مقصودة متراكبة متجمعة متناسقة، لو اختلت خصيصة واحدة منها أو تخلفت، ما أمكن أن تقوم فيها الحياة أو تدوم.

وكل شئ فى هذه الأرض، وكل حى آية، وكل جزء من كل شئ، ومن كل حى فى هذه الأرض آية. . والصغير الدقيق كالضخم الكبير آية.

هذه الورقة الصغيرة فى هذه الشجرة الضخمة أو النبتة الهزيلة آية، آية فى شكلها وحجمها، آية فى لونها وملمسها، آية فى وظيفتها وتركيبها، وهذه الشعرة فى جسم الحيوان أو الإنسان آية، آية فى خصائصها ولونها وحجمها. وهذه الريشة فى جناح الطائر آية، آية فى مادتها وتنسيقها ووظيفتها. وحيث مد الإنسان ببصره فى الأرض أو فى السماء تزاحمت الآيات وتراكبت، وأعلنت عن نفسها لقلبه، وسمعه، وبصره.

ولكن من الذى يرى هذه الآيات ويستشعرها؟ لمن تعلن هذه الآيات عن نفسها؟ لمن؟ للمؤمنين. . لأن غير المؤمن لا يرى فيما يرى من هذا الوجود إلا أشباحاً تتحرك، وكائنات تظهر وتختفى، وقد ينبهر بما يرى ويفتن بما يملأ عينيه من جمال، ولكنه يظل حيث هو فى تعامله مع كائنات الوجود وعوالمه، دون أن يصله شئ من هذا الكون ومبدعه.

إذن الآيات للمؤمنين. فالإيمان هو الذى يفتح القلوب لتلقى الأصداء، والأضواء، والأنداء، والإحساس بما فيها من آيات الله المبثوثة فى الأرض والسماء.

والإيمان هو الذى تخالط القلوب بشاشته، فتحيا وترق وتلطف، وتلتقط ما يزخر به الكون من إيحاءات خفية، وظاهرة، تشير كلها إلى اليد الصانعة، وطابعها المميز فى كل ما تصوغه وتبدعه من أشياء ومن أحياء. وكل ما خرج من هذه اليد فهو خارق معجز، لا يقدر على إبداعه أحد من خلق الله.

وإذا كان قوله تعالى: ﴿**إن فى السموات والأرض لآيات للمؤمنين**﴾ عرض عام للوجود كله فى السموات والأرض، فإن قوله تعالى بعد ذلك: ﴿**وفى خلقكم وما يبث من دابة آيات لقوم يوقنون**﴾. نظرة فى أفق محدود من آفاق الوجود. إنها نظرة ينظر بها الإنسان إلى نفسه. وكيف خلق؟ ومن أين جاء؟ ثم نظرة أخرى

يتجاوز بها حدود نفسه إلى عوالم الأحياء التى تدب على الأرض وتعيش فيها، فهى عوالم كثيرة مختلفة الأشكال والصور، بعضها يعيش على اليابسة وبعضها يعيش فى الماء، وبعضها يسبح فى الجو، وفى كل عالم منها أجناس كثيرة لاتكاد تقع تحت حصر. وأصغرها كأكبرها فى خلق الله، معجز فى تصريفه، معجز فى تناسب حيواته على هذه الأرض بحيث لايزيد جنس عن حدود معينة، تحفظ وجوده وامتداده، وتمنع طغيانه على الأجناس الآخرى طغيان إبادة وإفناء.

واليد الممسكة بزمام الأنواع والأجناس تزيد فيها وتنقص بحكمة وتقدير، وتركب فى كل منها من الخصائص والقوى والوظائف، ما يحفظ التوازن بينها جميعاً.

النسور جارحة ضارية وعمرها مديد، ولكنها فى مقابل هذه نزرة قليلة البيض والفراخ بالقياس إلى العصافير والزرازير ولنا أن نتصور كيف كان الأمريكيون لو كان للنسور نسل عصافير؟ وكيف كانت تقضى على جميع الطيور.

والأسود كذلك فى عالم الحيوان كاسرة ضارية، فكيف لو كانت تنسل كالظباء والشاء؟ إنها ما كانت تبقى على لحم فى الغابة ولا غذاء ولكن اليد التى تمسك بالزمام تجعل نسلها محدوداً بالقدر المطلوب، وتكثر من ذوات اللحوم من الظباء والشاء، وما إليها لسبب معلوم.

وهكذا وهكذا فى الخلق ذاته، وفى خصائصه، وفى تدبيره وتقديره فى عالم الناس، وعالم الدواب، فى هذا كله آيات، آيات ناطقة ولكن لمن؟ من الذى يراها ويتدبرها ويدركها؟ ﴿**لقوم يوقنون**﴾.

واليقين هو الحالة المهيئة للقلوب كى تحس، وكى تتأثر، وكى تنيب، اليقين الذى يدع القلوب تقر، وتثْبُتُ، وتطمئن، وتتلقى حقائق الكون فى هدوء، ويسر، وثقة، وفى راحة من القلق، والحيرة، والزعزعة فتصوغ من أقل ما تحصل أكبر النتائج وأعظم الآثار فى هذا الوجود.

وقد أشارت الآيتان إلى معان من الحكمة يستدل بها ذو العقل على الله وأسمائه وصفاته ووجوده، والآية الأولى ذكرت أن الإيمان للمؤمنين والآية الثانية ذكرت أن الآيات للموقنين. ونأخذ من ذلك أن هناك آيات فى الكون لابد لإحساس القلب فيها من إيمان، وآيات لابد لإحساس القلب فيها من يقين.

وفى هذه النظرة القائمة على حدود الإنسان وما يحيط به من كائنات حية يرى المؤمن ما يملأ قلبه بما لله سبحانه وتعالى من حكمة، وعلم، وقدرة. حيث تصنع القدرة الإلهية من تراب هذه الأرض تلك الكائنات المنتشرة فى كل أفق من آفاقها، والتى تملأ وجه الأرض حياة، وحركة، وجمالاً.

* * *

من آيات الله

فى الليل والنهار

قال تعالى فى سورة الجاثية : ﴿ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [الجاثية : ٥] .

هذه الآية الكريمة تأخذ بك أيها العاقل إلى نظرة تنظر بها إلى ما وراء الحياة وصورها المختلفة، فى الإنسان والحيوان. نظرة فى هذه الحركة الدائمة بين الليل والنهار حيث يختلف أحدهما عن الآخر كما يقول تعالى فى سورة الفرقان: ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴾ [الفرقان : ٦٢] .

واختلاف الليل والنهار ظاهرتان قد يخلق جدتهما فى نفوس البشر التكرار. ولكن أَيَّةُ عجيبة تطالع الحس البشرى، وهو يواجه الليل أول مرة أو يواجه النهار؟

إن القلب الشاعر المتفتح يرى هذه العجيبة دائماً، وينتفض لها دائماً، ويرى يد الله التى تدبر الكون كله كلما رأى الليل والنهار.

وتنمو معارف البشر، ويتسع علمهم عن بعض الظواهر الكونية، ويعرفون أن الليل والنهار ظاهرتان تنشئان عن دورة الأرض حول محورها أمام الشمس مرة فى كل أربع وعشرين ساعة.

ولكن العجيبة لا تنقص شيئاً بهذه المعرفة، فإن دورة الأرض هذه عجيبة أخرى، دورة هذا الجرم حول نفسه بهذه السرعة المنتظمة وهو عائم فى الهواء، سابح فى الفضاء، غير مستند إلى شئ إلا إلى القدرة التى تمسك به وتديره كما شاءت بهذا النظام الذى لا يتخلف، وبهذا القدر الذى يسمع للأحياء والأشياء أن

ويتوسع البشر فى علمهم فيدركون أهمية هاتين الظاهرتين على سطح الأرض بالقياس إلى الحياة والأحياء، ويعرفون أن تقسيم الأوقات بين الليل والنهار بهذه النسبة على سطح هذا الكوكب عامل رئيسى لوجود الحياة، وبقاء الأحياء، وأنه لو لم توجد هاتان الظاهرتان بهذا القدر، وعلى هذا النظام، لتغير كل شئ على هذه الأرض، وخاصة تلك الحياة الإنسانية التى تخص المخاطبين من الأحياء.

ومن ثم تزداد هاتان الظاهرتان أهمية فى الحس البشرى، ولا تنقصان وعلى امتداد النظرة فى الليل والنهار، حيث تلبس الأرض ثوباً من ضياء بالنهار، ثم تخلعه لترتدى ثوباً أسود بالليل، على امتداد هذه النظرة ترى السماء وقد نزل منها الغيث الذى ينزع عن الأرض ثوب الموت، ويَلْبسُهاَ ثوب الحياة. قال تعالى: ﴿ **وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ** ﴾ [الجاثية: ٥].

والرزق قد يكون المقصود به هو الماء النازل من السماء كما فهم منه القدماء ولكن ألا ترى أن رزق السماء أوسع، فهذه الأشعة التى تنزل من السماء ليست أقل أثراً فى إحياء الأرض من الماء، بل إنها لهى التى ينشأ منها الماء بإذن الله، والضوء كذلك له أثر كبير على الأرض والأحياء.

قال تعالى فى سورة ق: ﴿ **وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ (٩) وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ (١٠) رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا** ﴾ [ق: ٩-١١].

وقال تعالى فى سورة البقرة: ﴿ **الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ** ﴾ [البقرة: ٢٢].

وفى سورة البقرة أيضاً: ﴿ **وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا** ﴾ [البقرة: ١٦٤].

ويقول تعالى فى سورة الأنعام: ﴿**وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ**﴾ [الأنعام: ٩٩].

وجدير بالعقلاء أن يمتد نظرهم إلى الرياح التى تدفعُ السحب وتسوقُها إلى كل اتجاه، قال ابن كثير فى قوله تعالى: ﴿**وتصريف الرياح**﴾ أى جنوبا، وشمالاً، ودبوراً، وصبا، برية، وبحرية، ليلية ونهارية، ومنها ما هو للمطر ومنها ما هو للقاح. ومنها ما هو غذاء للأرواح، ومنها ما هو عقيم.

فالرياح تمض منحرفة ومستقيمة، دافئة وباردة، وفق النظام الدقيق المنسوق المقصود فى تصميم هذا الكون العجيب، وحساب كل شئ فيه حساباً دقيقاً لا يترك شيئاً للمصادفة العمياء.

ولتصريف الرياح علاقة بدورة الأرض، وبظاهرتى الليل والنهار، وبالرزق الذى ينزل من السماء.

قال تعالى فى سورة الأعراف: ﴿ **وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّىٰ إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ** ﴾ [الأعراف: ٥٧].

وقال تعالى فى سورة الروم: ﴿**اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ**﴾ [الروم: ٤٨].

وقال تعالى فى سورة الفرقان: ﴿**وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾ لِّنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا**﴾ [الفرقان: ٤٨، ٤٩].

فهذه الآيات تحوى فى أعماقها نظرات معطية، لكثير من الدلائل، والآيات الدالة على قدرة الله، وإنها لن تتجلى إلا لأولى العقول السليمة، والمدركات القوية النافذة، الذين يتفكرون فى اختلاف الليل والنهار وما أنزل الله من السماء من ماء، وتصريف الرياح، ثم ينتهى بهم التفكير إلى ما يجب لله من طاعة، وعبادة، وشكر.

إن اختلاف الليل والنهار، وإنزال الماء من السماء، وتصريف الرياح، آيات موحية للمؤمنين الذين يعقلون، فيستحضرون عظمة الله وجلاله، ويطالعون آيات الخالق فى كل شئ.

واستجلاء روائع حكمته هو شغلهم فى كل لمحه أو نظرة ﴿ **رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ** ﴾ [آل عمران: ١٩١]. حتى لا تنزع قلوبنا عن موارد ملكوتك، ولا تطيش عقولنا عن النظر فى آيات قدرتك.

إن هذه الآيات تذكرة للخاشعين، ينظرون فيما بين أيديهم وما خلفهم من خلق بديع، فيهديهم تفكيرهم: أن هذا لم يخلق عبثاً، إنما هو كون مدبر، مخطط من لدن عزيز حكيم. فإذا رأوا ذلك ذكروا الله، وأثنوا عليه حق الثناء، وعبدوه حق العبادة.

* * *

من آيات الله

تسخير البحر وما فى السموات والأرض

قال تعالى فى سورة الجاثية: ﴿اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الجاثية: ١٢، ١٣].

والمتأمل فى هاتين الآيتين يجد أنهما تحثان أولئك الذين استحقوا لآيات الله، ووقفوا موقف التدبر والتبصر، على أن يسرعوا الخُطا إلى الله، وأن يستجيبوا لما يدعوهم إليه الرسول من خير وهدىً، وأنهم إذ يتجهون إلى الله ليجدون هذه الدعوة المجدَّدة إليهم، والكاشفة لهم، عن جلال ربهم، وعظمته، وقدرته، وماله من فضل وإحسان إليهم.

فهو سبحانه الذى سخر البحر ومكن للناس من أن يجعلوه طريقاً ذلولاً، تجرى الفلك عليه، كما تجرى الدواب على اليابسة. كل هذا بأمر الله وحكمته، وهو سبحانه الذى قدر بحكمته أن تطفو بعض الأجسام على الماء حسب قانون محكم لا يتخلف أبداً.

ومن عجب أنه بحكم هذا القانون أن يلقى بالحصاة الصغيرة فى الماء فتغوص فيه، على حين أنه يلقى فوق ظهره بالسفينة محملة بالدواب، والناس، والأمتعة، فتظل سابحة فوقه.

إن هذا المخلوق الصغير الإنسان يحظى من رعاية الله سبحانه وتعالى بالقسط الوافر الذى يتيح له أن يسخر الخلائق الكونية الهائلة، وينتفع بها على شتى الوجوه، وذلك بالاهتداء إلى طرفٍ من سر الناموس الإلهى الذى يحكمها، والذى تسير وفقه ولا تعصيه ولولا هذا الاهتداء إلى طرف من السر ما استطاع الإنسان بقوته الهزيلة المحدودة، أن ينتفع بشئ من قوى الكون الهائلة، بل ما

استطاع أن يعيش معها، وهو هذا المخلوق الصغير، وهى هذه المردة الجبابرة من القوى والطاقات والأحجام والأجرام.

والبحر أحد هذه الجبابرة الضخام التى سخرها الله للإنسان، ﴿**الله الذى سخر لكم البحر لتجرى الفلك فيه بأمره ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون**﴾ فهداه الله إلى شئ من سر تكوينها وخصائصها عرف منه هذه الفلك التى تمخر هذا الخلق الهائل، وهى تطفو على ثبج أمواجه الجبارة ولا تخشاها. ﴿**لتجرى فيه الفلك بأمره**﴾.

فهو سبحانه الذى خلق البحر بهذه الخصائص، وخلق مادة الفلك بهذه الخصائص وجعل خصائص الضغط الجوى، وسرعة الرياح، وجاذبية الأرض، وسائر الخصائص الكونية الأخرى مساعدة على أن تجرى الفلك فى البحر، وهدى الإنسان إلى هذا كله، فأمكنه أن ينتفع به، وأن ينتفع كذلك بالبحر فى نواح أخرى ﴿**ولتبتغوا من فضله**﴾ كالصيد للطعام وللزينة، وكذلك التجارة والمعرفة، والتجربة، والرياضة، والنزهة، وسائر ما يبتغيه الإنسان من فضل الله فى البحار.

قال تعالى فى سورة النحل: ﴿**وَهُوَ الَّذي سَخَّرَ الْبَحْرَ لتَأْكُلُوا منْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا منْهُ حلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فيه وَلتَبْتَغُوا من فَضْله وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ**﴾ [النحل: ١٤].

سخر الله للإنسان البحر والفلك، ليبتغى من فضل الله، وليتجه إليه بالشكر على التفضل والإنعام، وعلى التسخير والاهتداء. ﴿**ولعلكم تشكرون**﴾ وهو يوجه قلبه بهذا القرآن إلى الوفاء بهذا الحق، وإلى الإرتباط بذلك الأفق وإلى إدراك ما بينه وبين الكون من وحدة فى المصدر، ووحدة فى الاتجاه إلى الله، ومن تخصيص البحر بالذكر إلى التعميم والشمول. فلقد سخر الله لهذا الإنسان ما فى السموات وما فى الأرض من قوى وطاقات ونعم وخيرات، مما يصلح له ويدخل فى دائرة خلافته.

قال تعالى: ﴿**وسخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض جميعا منه**﴾. فالله سبحانه وتعالى هو الذى سخر للعباد ما فى السموات وما فى الأرض، وأتاح لهم الانتفاع به فى كل وجه من وجوه الانتفاع، حسب استعدادهم وقدرتهم على التصرف فيه.

ففى السماء: النجوم والكواكب. وهى مسخرة بأمر الله سبحانه وتعالى فى دورانها فى أفلاكها، على ما يرى الناس منها فى جميع الأوقات، وهى قائمة على ما أقامها الله عليه من إرسال أضوائها وأنوارها على الأرض، دون أن يكون للناس شأن أو حول فى تحويل مداراتها أو تغيير نظامها، ثم للناس مع هذا أن ينتفعوا بكل ما أمكنهم الانتفاع به منها.

فإذا كشف لهم العلم عن إمكان اختزان الطاقة الحرارية للشمس، واستخدام هذه الطاقة فى إدارة المحركات، وتسيير البواخر والقاطرات والسيارات وغيرها، فذلك مما سخر الله للناس، ويسر لهم الانتفاع به.

وفى الأرض ما لا يحصى من قوى الطبيعة المختزنة فيها، والتى جعل الله مفاتحها فى يد الإنسان، بما يكشف له العلم من أسرار.

فهذا البناء الشامخ للمدنية، وما تزخر به الحياة، فى هذا العصر من ألوان لا حصر لها هو مما أودعه الله سبحانه وتعالى فى هذه الأرض، وهو ما استطاعت يد الإنسان أن تطوله.

وهناك زخائر لا تزال مطويةً فى صدر الطبيعة، تنتظر الإنسان القادر علي الوصول إليها وكشف الستر عنها. ﴿**الله الذى سخر لكم البحر لتجرى الفلك فيه بأمره ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون وسخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض جميعا إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون**﴾ وقد دل هذا على أن هذا النوع من الآيات يعرفه الإنسان بمجرد الفكر.

والآيتان دعوة إلى أعمال الفكر فى مواجهة هذه القوى المسخرة حتى ينسج الإنسان من هذه الخيوط المتناثرة هنا وهناك ثوباً قشيباً، يتزين به ويكون سمة له،

وشارة تفرق بينه وبين عالم الحيوان الذى يعيش على ما تعطيه الطبيعة دون أن يكون له أثر يذكر فى تحوير شئ أو تبديله.

والفكر لا يكون صحيحاً وعميقاً وشاملاً إلا حين يتجاوز القوى والطاقات التى يكشف سرها إلى مصدر هذه القوى والطاقات، وإلى النواميس التى تحكمها، وإلى الصلة بين هذه النواميس وفطرة الإنسان.

ومن تفكر فى هذه المعانى ازداد إيماناً وشكر ربه، وعرف أن عناية الله ترعى الإنسان. واستيعاب هذا المعنى يقتضى إيماناً بالله واليوم الآخر وشكراً لله.

* * *

من آيات الله

في الأرض والأنفس

قال تعالى في سورة الذاريات: ﴿ وَفِي الأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ۝٢٠ وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ ﴾ [الذاريات: ٢٠، ٢١].

إن المتأمل فى أحوال وشئون الكوكب الأرضى الذى نعيش عليه، يجد أنه معرض هائل لآيات الله، وعجائب صنعته.

معرض لم نستحل منه حتى اللحظة إلا القليل من بدائعه، ونحن نكشف فى كل يوم جديداً منه، ونطلع منه على جديد، ومثل هذا المعرض معرض آخر مكنون فينا نحن: النفس البشرية. الخفية الأسرار.

وإلى هذين المعرضين الهائلين تشير الآيتان تلك الإشارة المختصرة، التى تفتح هذين المعرضين لمن يريد أن يبصر، ولمن يريد أن يستيقن، ولمن يريد أن يملأ حياته حتى تفيض بالمتعة والمسرة، وبالعبرة الحية، وبالرصيد القيم من المعرفة الحقه.

والنصوص القرآنية مُعدةٌ للعمل فى جميع الأوساط، والبيئات والظروف، والأحوال، قادرة على إعطاء رصيد معين لكل نفس، ولكل عقل، ولكل إدراك كل بقدر ما يتقبل منها وما يطيق.

وكلما ارتقى الإنسان فى المعرفة، واتسعت مداركه وزادت معلوماته، وكثرت تجاربه، واطلع على أسرار الكون، وأسرار النفس.. ارتقى نصيبه، وتضخم رصيده، وتنوع زاده الذى يتلقاه من نصوص القرآن.

ولقد وجد الذين سمعوا هذا القرآن أول مرة من آيات الله فى الأرض وآياته فى أنفسهم نصيبهم، وتسلموا رصيدهم وفق معارفهم، وتجاربهم، وإشراقات نفوسهم.

ووجد كذلك كل جيل أتى بعدهم نصيباً يناسب ما تفتح له من أنواع العلوم، والمعارف ، والتجارب. . ونجد نحن نصيبنا وفق ما اتسع لنا من رقعة العلم، والمعرفة، والتجريب، وما تكشف لنا من أسرار لا تنفد فى هذا الكون الكبير، وستجد الأجيال بعدنا نصيباً مدخراً لها من الآيات التى لم تكشف لنا بعد فى الأرض والنفس.

هذه الأرض التى نعيش عليها حافلة بالمشاهد من الأحياء التى تعمر الأرض من النبات والحيوان، والطير، والسمك، والزواحف، والحشرات. قال تعالى فى سورة الأنعام: ﴿ **وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ** ﴾ (الأنعام: ٣٨).

وقال تعالى: ﴿ **وفى الأرض آيات** ﴾ تدل على الصانع وقدرته، وحكمته، وتدبيره، حيث هى مدحوة كالبساط لما فوقها، وفيها المسالك والفجاج للمتقلبين فيها، وهى مجزاةٌ: فمن سهل، ومن جبل، وصلبة، ورخوة، وسبخة، وفيها عيون متفجرة، ومعادن، ودواب منبثة مختلفة الصور والأشكال، متباينة الهيئات والأفعال.

ويقول البيضاوى فى قوله تعالى: ﴿ **وفى الأرض آيات** ﴾ أى فيها دلائل من أنواع المعادن والحيوان أو وجوه دلالات من الدحو، والسكون، وارتفاع بعضها عن الماء، واختلاف أجزائها فى الكيفيات، والخواص، تدل على وجود الصانع، وعلمه، وقدرته، وإرادته، ووحدته.

ثم انظر وتأمل فى آيات الله المعروضة فى الأرض. . الأقوات المذخورة فى الأرض للأحياء التى تسكنها، تسكن سطحها، أو تسبح فى أجوائها أو تمخر ماءها، أو تختبئ فى مغاورها وكهوفها أو تختفى فى مساربها وأجوافها.

هذه الأقوات الجاهزة المركبة والبسيطة والقابلة للوجود فى شتى الأشكال والأنواع لتلبى حاجة هذه الأحياء التى لا تحصى ولا تحصى أنواع غذائها أيضاً.

هذه الأقوات الكامنة فى جوفها، والسارية فى مجاريها والسابحة فى هوائها، والنابتة على سطحها، والقادمة إليها من الشمس، ومن عوالم أخرى، بعضها معروف وبعضها مجهول، ولكنها تتدفق وفق تدبير المشيئة المدبرة التى خلقت هذا المحضن لهذا النوع من الحياة، وجهزته بكل ما يلزم للأنواع الكثيرة التى لا تحصى.

وتنوع مشاهد هذه الأرض ومناظرها حيثما امتد الطرف، وحيثما تنقلت القدم، وعجائب هذه المشاهد لا تنفد: من وهاد، وبطاح، ووديان، وجبال، وبحار، وبحيرات، وأنهار، وغدران، وقطع متجاورات، وجنات من أعناب، وزرع، ونخيل صنوان وغير صنوان. وكل مشهد من هذه المشاهد تتناوله يد الإبداع والتغيير الدائبة التى لا تفتر عن الإبداع والتغيير.

والخلائق التى تعمر هذه الأرض من الأحياء.. نباتاً، وحيواناً وطيراً، وسمكاً، وزواحف وحشرات، كل خليقة منها أمة، وكل فرد منها عجيبة. كل حيوان، كل طائر، كل زاحفة، كل حشرة، كل دودة، كل نبتة، لا بل كل جناح فى يرقة، وكل ورقة فى زهرة، وكل قصبة فى ورقة.

فى ذلك المعرض الإلهى العجيب الذى لا تنقضى عجائبه ولو مضى الإنسان. بل لو مضى الناس جميعاً يتأملون هكذا، ويشيرون مجرد إشارة إلى ما فى الأرض من عجائب، وإلى ما تشير إليه هذه العجائب من آيات ما انتهى لهم قول ولا إشارة.

غير أنه لا يدرك هذه العجائب إلا القلب العامر باليقين ﴿**وفى الأرض آيات للموقنين**﴾ فلمسة اليقين هى التى تحى القلب، فيرى ويدرك، وتحى مشاهد الأرض فتنطق للقلب بأسرارها المكنونة، وتحدثه عما ورائها من تدبير وإبداع، فقوله تعالى: ﴿**فى الأرض آيات للموقنين**﴾ إشارة إلى أنه لا ينتفع بتلك الآيات الكونية، ولا يقع على مواقع الهدى منها إلا أهل اليقين الذين يطلبون العلم والمعرفة بالبحث الجاد، والنظر المتفحص.

وإذا كانت الأرض كلها عجائب وآيات، فهناك عجيبة تدب على هذه الأرض قال تعالى: ﴿**وفى أنفسكم أفلا تبصرون**﴾ أن هذه العجيبة هى هذا المخلوق الإنسانى، إنه عجيبة فى تكوينه الجسمانى، عجيبة فى تكوينه الروحى، عجيبة فى أسرار هذه النفس، وهو عجيبة فى ظاهره وعجيبة فى باطنه.

وأنه ليكفى الناس أن ينظروا فى أنفسهم. فإن فى أنفسهم عالماً رحيباً، وكوناً فسيحاً، وأنه ليكفى أن يقيم أحد الناس بصره على مسيرته فى الحياة، من وجوده نطفةً إلى أن صار رجلاً، إنه سيجد فى هذا سجلاً حافلاً بالآيات الدالة على قدرة الخالق، وعلى حكمته وعلى بديع صنعه.

وكل فرد من هذا الجنس عالم وحده ، ومرآة من خلالها هذا الوجود كله فى صورة خاصة لا تتكرر أبداً على مدار الدهور، ولا نظير له بين أبناء جنسه جميعاً، لا فى شكله، وملامحه ولا فى عقله ومداركه، ولا فى روحه ومشاعره.

وكثير من عجائب الجنس البشرى مكشوفة للبصر تراه العيون ﴿**وفى أنفسكم أفلا تبصرون**﴾.

* * *

المصادر والمراجع

ابن كثير: (أبى الفداء إسماعيل) تفسير القرآن العظيم- ط كتاب الشعب - القاهرة.

الأهل: (عبد العزيز سيد) من إشارات العلوم فى القرآن - ط النهضة الحديثة- بيروت ١٣٩٢هـ.

البلادى: (عاتق بن غيث) آيات الله الباهرات - ط دار مكة - مكة المكرمة ١٤١٢هـ.

البيضاوى: (ناصر الدين عبد الله بن عمر) تفسير البيضاوى- ط استانبول ١٣٠٥هـ.

تعليب: (عبد المنعم أحمد) آيات الإيمان بالله - ط دار القلم - الكويت ١٣٩٤هـ.

حجازى: (محمد محمود) التفسير الواضح - ط مطبعة الاستقلال- القاهرة ١٣٩٢هـ.

حوى: (سعيد) الأساس فى التفسير- ط دار السلام - القاهرة ١٤٠٥هـ.

الخطيب: (عبد الكريم) التفسير القرآنى للقرآن - ط دار الفكر العربى القاهرة١٩٦٧هـ.

الفخر الرازى: (محمد بن عمر) التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب - ط القاهرة ١٩٣٣م.

رجب: (عبد الجواد) مع الله نظرات فى الكون والحياة - ط دار الاعتصام ١٣٩٤هـ.

الزمخشرى: (جار الله محمود بن عمر) الكشاف عن حقائق التنزيل ومبين الأقاويل - ط الحلبى القاهرة ١٣٨٥هـ.

السايح: (الدكتور أحمد عبد الرحيم) المعرفة فى الإسلام بين الأصالة والمعاصرة- ط دار الطباعة المحمدية - القاهرة ١٤٠٠هـ.

الشوكانى: (محمد بن على) فتح القدير - ط مصطفى الحلبى- القاهرة.

عبد الباقى: (محمد فؤاد) المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم - ط كتاب الشعب - القاهرة.

عبده: (الإمام محمد) الإسلام بين العلم والمدنية- ط كتاب الهلال - القاهرة ١٩٦٠م

العدوى: (محمد أحمد) آيات الله فى الآفاق - ط دار المنار - القاهرة ١٣٥٢هـ.

الغمراوى: (محمد أحمد) الإسلام فى عصر العلم- ط دار الإنسان- القاهرة ١٣٩٣هـ.

الغمراوى: (محمد أحمد) فى سنة الله الكونية - ط لجنة التأليف ١٣٥٥هـ.

فرهود: (الدكتور محمد السعدى) فى رحاب البيان القرآنى - ط دار الطباعة المحمدية ١٣٩٨هـ.

الفندى: (محمد جمال الدين) القرآن والعلم - ط دار المعرفة القاهرة .

قطب: (الشهيد سيد) فى ظلال القرآن - ط دار الشروق - القاهرة.

قنبى: (الدكتور حامد صادق) الكون والإنسان فى التصور الإسلامى - ط مكتبة الفلاح - الكويت ١٤٠٠هـ.

مجموعة من العلماء: (لجنة التفسير) المنتخب من التفسير - المجلس الأعلى للشئون الإسلامية القاهرة.

مجمع البحوث الإسلامية: (لجنة التفسير) التفسير الوسيط - ط مجمع البحوث الإسلامية الأزهر.

المراغى: (أحمد مصطفى) تفسير المراغى - ط الحلبى القاهرة ١٣٨٢هـ.

موريسون: (كريس) العلم يدعو للإيمان - ط النهضة المصرية ١٩٧٧م.

نوفل: (عبد الرزاق) الله والعلم الحديث - ط الناشرون العرب ١٩٧١م.

الفهـــــرس

الموضـــــــوع	صفحـــة

رقم الايداع
٩٨/٢٣١٣
I.S.B.N.
977 - 294 - 054 - X

طـــبع آمـــون
٤ عطفة فيروز - متفرع من ش إسماعيل أباظة - لاظوغلى
تليفون: ٣٥٤٤٥١٧ - ٣٥٤٤٣٥٦